اكسري القيد يا أماه

ولا تعودي حتى يعود إلى رشده

obeikandl.com

الكتاب : اكسري القيد يا أماه (رواية)
المؤلف : عبدالله البنعلي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٣
رقم الإيداع : ٢٠١٣/١٤٣٨٦
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 160 - 4

الناشر
شمس للنشر والإعلام
القاهرة : ٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة. الهضبة الوسطى. المقطم
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

obeikandl.com

شمس
للنشر والإعلام

رواية

# اكسري القيد يا أماه

## ولا تعودي حتى يعود إلى رشده

عبدالله البنعلي

obeikandl.com

obeikandl.com

# إهـداء

إلى العزةّ والشموخ..

إلى إلهامي عندما يجف قلمي..

إلى أختي.. أم البدر

obeikandl.com

obeikandl.com

# ( ١ )

لم يستطع ذلك الإنسان الشغوف بأُمِّهِ أن يتمالك نفسه أو يحبس الدموع وهو يَهمُ ولهًا وشوقًا لعناق أغلى ما في كونه الصغير.. أتى إلى بيت أُمه المسنة بعد غياب دام ثلاثة أشهر أمضاها يدعو إلى الله.

عندما رأى أمه للوهلة الأولى.. كانت قد تغيَّرت كثيرًا .. والزمن قد نحت جسمها الضعيف.. رآها تجلس على حافة السرير.. رجلها اليسرى تتدلى، بينما الأخرى على السرير تدهنها بزيت حبة البركة.. كانت ترتدي حجابًا أسود وتلف رأسها بعصبة من القماش الأخضر؛ علَّها تريد أن تخفف من صداعها المزمن، أو لتخفف من الطقطقات والأصوات التي تسمعها داخل رأسها، وربما لتغطي الشعر الفضي الخفيف الذي بالكاد يغطي رأسها.

وقف أمام باب غرفتها يتأمل ذلك الملاك الذي طالما ما عشق قُربه واشتم عبيره.. رأى تلك الأساور الذهبية على معصمها، والتي كان قد اشتراها لها من أول مكافأة حصل عليها وهو في الجامعة.. اعتقد أن بريق يديها لم يدع للمعان معاضد الذهب أن تبين وتظهر.. ظلَّ واقفًا بلا حراك، بينما هي تنظر إلى النافذة

في صمت.. ترفع إحدى رجليها وترخي الأخرى.. تحملق في الصور فوق الدولاب الخشبي، ثم تحيد بنظرها نحو التلفاز لترى عرضها المفضل - ركن البادية - تُردِّد بعض الأبيات مع المنشد وتصفق بيديها بين الحين والآخر.

ثم أخذت تنادي: يا ابنتي.. يا دلال.. أين أنتِ يا دلال؟ هل وصل سلمان؟ لماذا تأخر؟ قال إنه سيصل عند الصباح، وها نحن عند الظهيرة!... لم يجبها أحد .. لعل دلال سئمت الانتظار وطلبات أمها المتكررة وذهبت إلى بيت زوجها دون أن تودعها.

- ها أنا هنا يا أمي.. للتو قد وصلت.

شهقتْ أم سلمان من الفرح والمفاجأة في آنٍ واحد.. حاولت الاستدارة لتقف على رجليها، ولكنها سقطت من على السرير على جنبها الأيمن.. هرع إليها.. ولكنها ما لبثت أن اعتدلت وقالت: لا شيء! لا شيء يا بُني، أنا بخير.. لله الحمد والشكر والمنة.. اللهم أحمدك وأشكرك.. لقد أكرمتني برؤية قرة عيني.

حضن سلمان أمه..

- لقد اشتقتُ إليكِ يا أمي..

حدَّثها طويلاً وطمئنها عن حاله.. ولكنه كلما سأل عن حالها وعن صحتها.. كانت تجيب بنفس الجواب:

- لم يبقَ من الأيام كُثر.. لم يبقَ قدر ما قد مضى.. لم يبقَ إلا فتاتها.. وعسى أن أُعمِّر هذا الفتات بذكره وشكره.. أنا أنتظر يا بني.. فقط أنتظر اليوم الموعود.

وكان ابنها سلمان يرَّدد من خلفها:

- بعد عمرٍ مديدٍ إن شاء الله.

كلما استغرقا في الكلام.. تشكو حالها، ومعاملة ابنتها دلال لها، وتقول:

- إنها لا تطيق معي صبرًا.. تقول إني أكرِّر الكلام ولا ألتزم بتعليماتها أو تعليمات الدكتور.. تعتقد أنني أتدلل عليها.. أين الدلال يا حظي العاثر؟ تلومني إذا نسيت أخذ دوائي.. ماذا أفعل وقد أخذ النسيان من عقلي مأخذه.. أنا لا أكاد أذكر ما إذا قد أفطرت، أو ما إذا قد توضأت.

عرف منها أنها ومنذ أشهر أصبحت تصلي إما بعينيها وهي جالسة، أو بسبابتها وهي مستلقية على سريرها...

يا لها من امرأة مؤمنة لم تفرط في صلاة منذ أن كانت في الخامسة من عمرها.

أخذ يتساءل: كيف انتكستْ صحتها بهذه السرعة؟ هل لأنها افتقدتني؟ أم أساء أحد معاملتها؟!

كل حين وهو يحدثها كانت ترفع يدها إلى السماء، وتدعو أن يحفظ الله أبناءها من كل سوء، وأن يصرف الأعداء وعيون الحُسَّاد عنهم.. وكأنهم أمراء هذا الزمان، أو أصحاب شأن أو مال يحسدون عليه.

كان ذلك اليوم الموعود هو الرابع عشر من شهر رمضان عندما تنزلت ملائكة الرحمة للمرة الثانية على بيتهم خلال سنتين ليأخذوا الأمانة ويردوا الروح الطاهرة إلى بارئها...
كان معها سلمان وحيدًا، بينما أخته منشغلة بتحضير طعام الإفطار؛ حيث لم يتبقَ إلا نصف ساعة على صلاة المغرب.
أبتْ أن تأخذ دواء القلب.. أبتْ أن تشرب قطرة ماء؛ رغم إلحاح سلمان، وتُردد : كيف أعصي من أمرني بالصيام؟.. إن الصيام ليس لي، بل له سبحانه.. كيف أعصيه وأقطع صيامي؟.. وحتى لو قطعت صيامي لن يتقدم العمر دقيقه ولن يتأخر..

كانت تصر وكأنها كانت قد حسمت أمرها، أو رأت الملائكة الذين من حولها بأمِّ عينها.

رفعت إصبعها إلى الأعلى بدون عون من أحد؛ وكأنها قد حضَّرت لهذا اليوم جيدًا .. وبعد القليل من التنهدات والوصايا.. قالت الشهادة للمرة الأخيرة في حياتها.

إنها حياة أم سلمان التي لم تعشها كما عاش غيرها من النساء؛ إلا ما قلَّ؛ عاشتها بالصبر والسلوان، وحُسن المعشر، وكفّ اللسان.. عرفتْ الشقاء وكأنه صديقٌ حميم.. عرفتْ العوز وكأنه جارٌ ذميم.. لم تسرف ولم تبخل على نفسها، بل من قليلها أنفقت ترجو رحمة الرحيم.. لم تُغضِب ربها، بل ضحت من أجل أهلها..

إنها العظمة والشموخ التي غرسها الله في جلِّ الأمهات...

رحم الله أمهاتنا الذين آثروا على أنفسهن ليعِلنَّ مَنْ حولهن.

تنهد سلمان وضمها للمرة الأخيرة إلى صدره وهو يحتسب ويدعو لها.. ويتلو بكل إيمان ورضا: ( يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً )... أبى الدمع أن يتساقط من عينيه، بل حار بين جفنيه رغم فقدان الأعز والأكرم وكل كيانه.

إنها لم تمت بالنسبة لسلمان.. وإنما ذهبت في رحله قد قُدِّر لها مسبقًا.. وكذلك لأنها ستظل في قلبه وسمعه وبصره ما دام يتنشق الهواء.. ولكنه حتمًا سيشتاق إلى سماع صوتها وهي تدعو له ليل نهار.. سيشتاق إلى لاءتها وهي تلح عليه كل حين: لا تذهب قبل أن تتناول الغداء.. لا تنام وأنت عطشان.. لا تركض مسرعًا فقد تقع.

عاش سلمان بقية عمرة على بركة دعائها، وصدى صوتها، وشذى طيب قلبها.. عاش خفيفًا هينًا لينًا لطيفًا غير مبالٍ بملذات الدنيا؛ كما فعلت قدوته وراسمة خريطة طريقه.

• • • •

تبدأ الرواية عندما كُتب لسلمان عُمْرٌ جديدٌ بعد ما أوشك على الهلاك في ظُلمات البحر.

obeikandl.com

## ( ٢ )

في ظهيرة يوم جمعة، وبينما كان ذلك الفتى ذو الأربعة عشر عامًا من عمره يحاول اصطياد بعض القشريات الصغيرة والحلزون البحري ليستعملها كطعم في صنارته.. إذا برجليه تنزلق من على الصخر البحري المُغطى بالطحالب اللزجة ليسقط في البحر.. حاول السباحة، ولكن رجله اليمنى المصابة بشلل الأطفال كانت عبئًا ثقيلاً عليه .. ولكنه بعد حين، وبعد أن قاوم بكل شجاعة التيارات المائية والأمواج العاتية؛ استطاع الوصول إلى الصخرة التي سقط منها.. حاول المرة تلو الأخرى التسلق، ولكن لزوجة الطحالب التي على الصخر وبرودة الماء هدَّت من عزمه وخارت قواه.

كان ذلك الصباح شديد البرودة؛ أو ما يطلق عليه برد البطين.. ظلَّ متمسكًا بنتوء وتشققات الصخر لمدة طويلة علَّه يجد طريقه ليخرج من هذا المأزق الخطير الذي وضع نفسه فيه، أو أن يراه أحد الصيادين وينقذه..

حاول وحاول.. ولكن اليأس أخذ منه، وصار يدعو ويستغيث حتى بدأت تظلم الدنيا في عينيه.

استفاق وأخذ ينظر من حوله، وإذا به داخل خيمة دافئة مبطنة باللون الأخضر الزيتي، وهو مغطى بفروة مصنوعة من صوف الماعز وينبعث منها ريح الكالونيا الممزوج برائحة دخان الحطب البري.. وأخذ يتساءل: " أين أنا؟.

وإذا بتلك المرأة المتشحة بحجاب أسود من رأسها حتى أخمص قدميها.. يكاد لا يرى إلا وجهها المشرق وبعضًا من شعرها الأبيض على أطراف جبينها... دخلت ولم تنظر إليه، بل ذهبت إلى ركن الخيمة وأخذت إبريقًا وقد كساه سواد دخان الحطب وسكبت منه شرابًا أبيض ذو رائحة جميلة غطَّى ريحه كل أرجاء الخيمة.. ثم استدارت ونظرت نحوه:

- ما شاء الله.. أراك مستيقظًا.. لقد أقلقتنا عليك يا غلام.

- سلامٌ عليكِ يا خالة.. ولكن أين أنا؟

- وعليك السلام.. أنت في أمان واطمئنان وفي أطيب مكان.. خذ هذا الحليب بالزنجبيل سيدفئ جسمك ويريح بالك.

- أين أنا يا خالة؟ أكاد لا أحس بيداي وقدماي.

- لا بأس عليك يا بني.. اشرب هذا الحليب ودفئ نفسك.. أنا ذاهبة لأجلب لك سمكة شويتها لك ومرقه خضار لترد لك روحك وتنعش بالك.

بعد خمس عشرة دقيقة.. دخلت المرأة وبيدها الطعام ووضعته أمامه:

- لماذا لم تشرب الحليب الساخن؟ لقد برد الآن يا ولدي.

- حاولتُ الاعتدال يا خالة، ولكني لم أستطع.

- هيا دعني أساعدك.. أمسك بيدي وحاول الجلوس.

حاول عدة مرات ولكنة يأس ثم قال لها معتذرًا:

- أنا أصلاً مشلول يا خالة برجلي اليمنى.. وأظن الآن أن كلتا قدماي ويداي قد شلتا أيضًا .

- حرِّك نفسك يا ولد.. انظر إليَّ، أنا في السبعين وعندما أسابق زوجي أسبقه.. هيا حاول بعزيمة الشباب هذه المرة.

أمسكت بكلتا يديه وأخذت تسحبه وتقول: " يا كريم يا رحيم يا قوي.. فرجها يا فرج.. وارحم هذا الولد الأدعج".

خجل سلمان من نفسه وأخذته الحمية وهو يسمع دعائها وصاح بأعلى صوت: "يا الله"..

وإذا به يعتدل جالسًا.

- شكرًا يا خالة.. ما شاء الله لقد ذكرتني بأمي.. عندما أُصبتُ بالشلل بسبب حقنة لقاح شلل أطفال خاطئة من ممرض حارتنا؛ رعتني وعلمتني المشي مرة أخرى.. وها أنت

تساعديننني وتشدين من عزمي حتى جلستُ بعد أن اعتقدتُ أنني لن أجلس أو أقف مرة أخرى... ولكن أين أنا يا خالة؟

- أنت يا ولدي في خيمة كما ترى، وأنا اسمي "غنيمة".. يمكنك أن تناديني باسمي يا ولد الناس... سأسخن لك حليب الزنجبيل ويمكنك شربه بعد أن تتم طعامك.

- شكرًا يا خالة غنيمة.. أنا اسمي سلمان صالح المبهور.

وبينما هو يتناول طعامه اللذيذ .. كانت غنيمة تسخن حليب الزنجبيل وتتمتم ببعض الكلمات التي لم يفهمها.

حاول سلمان أن يتذكر لِمَ هو هنا مع هذه السيدة.. ولكنه كان في شبه غيبوبة.. حيث أنه يتذكر اسمه واسم أبيه وأمه وكل شيء في حياته السابقة، ولكن لا يتذكر من أتى به إلى هنا، وكيف وماذا كان يفعل..

وبينما هو شارد في أفكاره.. نادته الخالة غنيمة:

- هل قلتَ إن أباك يُدعى صالح المبهور؟

- نعم يا خالة.. هذا أبي.

- وأين أهلك الآن؟

- إنهم في فريحه.

- على أية حال.. كيف الأكل؟ أتمنى أنه أعجبك.

قالتها وكأنها تريد تغير الموضوع أو كأنها تخفي شيئًا عنه.

- لذيذ.. خاصة السمكة المشوية.

- ما شاء الله.. أتحب أكل السمك؟

- أنا أحب صيد السمك وأكله، وأحب البحر وأعشقه.. تمنيتُ أن أعيش على الشاطئ كل عمري.. هل تحبين البحر أنت يا خالة؟

- منذ زواجي من أبو سرور ونحن نعيش في هذه الخيمة بالقرب من البحر .. وكان بودنا أن نبني بيتًا صغيرًا حتى لو من الخشب والصفيح على البحر، ولكن السلطات كل يوم يأتون إلينا ويقولون هذا المكان محظور وذاك ممنوع.. لذلك نحن نعيش في خيمة.. كنا قبل سبعة عشر عامًا نعيش على رأس هتلان وأُمرِنا بإخلاء المكان.. وها نحن من مكان إلى مكان.. والآن سمحوا لنا بالتخييم في أسوأ مكان.. شكوانا إلى الله مقدر الأقدار وخالق البحار ومخرج اللؤلؤ من المحار.

- تقصدين نحن بالقرب من البحر الآن ؟!

- نعم يا سلمان.. وكيف لا تعلم ذلك؟

- لأني لا أسمع صوت الموج ! ولا أشم رائحة البحر !.

- الريح يا بني شمالية .. فصوت الموج ورائحة البحر تذهب جنوبًا مع الريح.. كما تعلم.

وفجأة قامت الخالة غنيمة من مكانها وهي تقول: أبو سرور على وصول.. حيث إنها سمعت صوت هدير سيارته.

وقفتْ أمام باب الخيمة وقالت:

- يا هلا.. لقد أطلتَ المغيب !.

- أبدًا .. ذهبتُ إلى مركز أمن السواحل وقالوا هذا ليس بمسؤوليتهم.. لأنه لا يوجد بلاغ عن مفقود.. الله يعيننا، والله مصيبة وقعت علينا .. أنا خائف يموت هذا الولد ويحملونا مسؤوليته وبعدها سين وجيم وكأننا نحن الذين أغرقناه.

- لا أبشرك الولد بخير.. إنه يأكل ويشرب بالداخل. انزل تعال لا مسؤولية ولا شيء.. تراه شكله طيب وحبيب.

- كأنكِ أُعجبتِ به.. أنت كلما رأيتِ ولدًا؛ تمنيتِ لو أنه ولدك.. خلاص كبرنا على الإنجاب وتربية العيال.

- نعم والله.. لكن هذا الولد شكله حبيب ما هو مثل أبيه.. بس أنت يا شيخ الشباب - الحب كله.. من يحتاج إلى ولد وأنت معه.. انزل من السيارة وانظر إليه.. قد يسرك ويبهج قلبك.

- الحمد لله.. إن الولد بخير، سبحانه الذي يحيي ويميت.. هذا الولد له عمر طويل.. كيف أن الله دلني عليه ؟!

- نعم.. الله دلَّك عليه.. لو ما أنت بعد الله ! لكان قد مات من برودة الماء.

- لكن أخبريني.. من أبوه؟

- دعنا من أبيه الآن.. ماذا سنفعل به؟ لقد قال إنه من فريحه.. وهي ليست ببعيدة من هنا.

- من المؤكد أن أهله سيفتقدونه ويأتون للبحث عنه.. فريحه ليست ببعيدة ويمكن أخذه إلى بيت أهله غدًا.. أما الآن سنبقيه عندنا حتى الصباح.. ثم نأخذه إلى مركز الشرطة في فريحه؛ طبعًا إذا لم يتذكر موقع بيتهم؛ وهم يتصرفون.

بعدها بساعة.. وعند وقت الغروب.. وقفت إحدى السيارات ذي الدفع الرباعي بالقرب من مخيمهم.. وأخذ من بداخلها ينادي بصوت جهوري:

- السلام عليكم.. هل هناك أحد بالداخل؟

- وعليكم السلام.. تفضل.. هل من خدمه نسديها لك يا طيب؟

- أنا سائق المبهور.. اليوم أنزلت أحد الشباب على بعد كيلوين من مخيمكم ولمَّا رجعت عند العصر لم أجده.. مكثتُ ثلاث ساعات وأنا أبحث عنه.. والله يا عمّ أنا في ورطة.

- أبشِّرك.. الولد موجود وبخير.. وجدته في البحر بين الحياة والموت، وهو الآن بالداخل ولكنه منهك قليلاً .

- هل أستطيع رؤيته؟ يجب أن أخذه إلى البيت حالاً.. لقد تأخرنا كثيرًا.

- هيا تفضل.. إنه في تلك الخيمة الخضراء.

ذهب السائق إليه وأيقظه من نومه.. ثم طلب من "أبو سرور" أن يساعده على حمل سلمان إلى السيارة.

obeikandl.com

# ( ٣ )

تسلل سلمان إلى غرفته بمساعدة السائق ونام نومة أهل الكهف..

أتت أمه لطيفة لإيقاظه صبيحة يوم السبت للذهاب إلى المدرسة، فبادرها قائلاً :

- رأسي.. رأسي تؤلمني.. اتركيني ارتاح اليوم.

وضعت لطيفة يدها الحنونة على جبينه للتأكد والاطمئنان.. ثم ربتت على خديه وقالت له بحنان الأم:

- لا بأس عليك.. ارتاح اليوم والعصر سنآخذك إلى العيادة.

وبينما هي ذاهبة إلى الدور الأرضي لجلب دواء مزيل الصداع؛ إذا بصوت زوجها صالح يزمجر:

- ما هذا ؟ الساعة الآن السادسة والنصف، وهذا ابنك الجحش ما زال نائمًا.

- اشش.. اخفض صوتك.. الولد مريض وعنده سخونة.

- والله أخر زمن.. أنت تقولين لي اشش.. هيا اذهبي وأيقظيه حتى لا أحطِّم البيت على رأسك ورأسه.. والله لعب عيال.. ما في إحساس بالمسئولية.

- طيب.. طيب يا صالح.. فطورك جاهز على الطاولة.. اذهب أنت الآن وأنا سأوقظه.

وبينما هي وابنها يتناقشان في موضوع مرضه ومدرسته.. دخل عليهم صالح مرة أخرى..

- هيا قم من فراشك.. لا أعذار ولا كذب وتمثيل.. ستذهب للمدرسة غصب عنك وعن أمك.

جلس سلمان على السرير ونظر بوجهه الشاحب إلى أمه وكأنه يستجدي.. فقالت له بحنان الأم:

- استلقي يا سلمان.. أنك لن تذهب إلى المدرسة اليوم.

احمَّر وجه صالح وكأن كلامه لم يسمع أو يأخذ بالاعتبار.. ثم صاح في وجه لطيفة :

- أنت اذهبي إلى عملك في المطبخ.. وأنت قم واغتسل.. أنا من سيوصلك إلى المدرسة.. والله عشنا وشفنا.. أخر الزمن الحريم يعلمونا كيف نربي أولادنا.

- حرام عليك يا رجل.. الولد مريض.. انظر إلى وجهه؛ إنه مصفر.

تجاهلها تمامًا وأخذ يمشي نحو الباب الخارجي وهو يسب ويشتم وكأن الدنيا انقلبت فوق على عقب.

اغتسل سلمان وارتدى ملابس الزي الموحد للمدرسة ثم لحق بأبيه..

وبينما كانا يهمان بالخروج.. نادت لطيفة زوجها باستعطاف:

- محتاجة بعض النقود.. سأشتري بعض المقاضي والمأكولات للبيت.

- سبحان الله.. مثل البالوعة.. قبل أسبوع أعطيتك مائة درهم.. أين ذهبت كل تلك الأموال التي أصرفها عليكِ وعلى أبنائك المدللين؟

- ماذا تقول يا رجل؟ أين هي الأموال التي تتحدث عنها؟ كلها في بطنك وبطن أبنائك.. أنا لم أشترِ لنفسي فستانًا من ثلاث سنين وأكثر.

- طيب.. خذي مائتين ولا تطلبي أكثر.

بعد خروجهم تذكرتْ صلاه الصبح.. هرعتْ إلى غرفتها وهي تستغفر وأدَّت ركعتي الفريضة.. وعندما نزلتْ إلى المطبخ لتتفقد نواقص البيت.. قالت لها الطباخة (سيمياتي):

- ايش في بابا؟ ما في يأكل فطور.. ليه مستر دائم زعلان؟ ليه واجد قرقر.

- ألف مرة قلت لكِ.. لا تضيفي معجون الطماطم مع الفول ولا الفلفل الحار مع البيض.. لكن أنت دائمًا تفعلين ما يروق لكِ.. أنت تعملين هنا منذ ثلاثة أشهر.. من المفترض أنك تعرفين ذوق مستر.

صمتت (سيمياتي) برهة وأخذت تحدث نفسها: جئنا من بلدنا لنخدمهم بأقل الأثمان.. ولا نلقى منهم إلا رواتب متأخرة.. استهزاء.. جوع.. سجن.. وقلة نوم.

ثم استجمعت قواها وقالت للطيفة:

- مدام أنا مافي يعرف ليه مستر دائم مايحب أكل أنا.. أنا طباخة من عشرين سنة.. أنا شغل في كويت ولبنان وكل شي زين.. أنا إنسان لازم أسمع كلمة شكر.. هذا بيت ما في شكر.. إذا مستر لا يريد أنا خليه يودي انديا.

التزمتْ لطيفة الصمت.. اعتقدت أن ما فيها يكفيها.. وأخذت تفكر في ابنها سلمان.. لقد كان شاحب الوجه ويترنح عندما مشى إلى الباب.. وقالت لنفسها : ما كان بمقدوري أن أفعل شيئًا.. عشت مع هذا الخنزير مذلولة ستة عشر عامًا .. لا كلمة لي في هذا المنزل.. لو رفضته عندما جاء لخطبتي كان يمكن أنا الآن في أحسن حال.. كل صديقاتي الله وفقهم بخير الرجال

ووفرة المال.. ليه أنا يا ربي ؟ ماذا فعلت لتعذبني بكذا إنسان... ثم رفعت يدها إلى السماء وأخذت تدعو : " اللهم فكَّ أسري ويسِّر أمري واحلل عقدةً من لساني وعافني وارحمني يا ودود يا قدوس يا أرحم الراحمين".

استلقت على كنب الصالة وغطت في نوم عميق، ولم يوقظها إلا صوت أذان الظهر.. تعوذت من الشيطان ثم صلت صلاة الظهر والعصر جمعًا وكأنها على سفر..

بعد الصلاة نادت على (سيمياتي) :

- هيا ارتدي العباءة سنذهب إلى البقال مع السائق لشراء أغراض الغداء وبعض لوازم البيت قبل أن يأتوا العيال.

عندما عادوا من التسوق كان سلمان مع أخته الصغرى دلال قد عادا إلى البيت.. بادرت دلال أمها :

- ماما أين كنتِ ؟ أنا وأخي نتضور جوعًا.. لقد نسينا مصروف المدرسة من البلبلة التي أحدثها أبي هذا الصباح.

تجاهلتها في البداية ثم استدركت وسألت ابنتها :

- أين أخوكِ ؟

- ذهب إلى غرفته.. مسكين إنه مريض.. لم يتفوه بكلمة طوال الطريق.

هرولت لطيفة إلى الطابق العلوي وضمته إلى صدرها والدموع تنهمر من عينيها وهي تلوم نفسها.. ثم تمالكت نفسها وسألته:

- كيف المدرسة؟ إن شاء الله ما تعبت.

- الصراحة.. من الحصة الأولى لاحظ الأستاذ أنني مريض وأخذني إلى غرفة المراقب حيث يوجد سرير .. أعطوني خافض للحرارة وتركوني أنام ثلاث حصص..لكن الحمد لله أنا بخير الآن.

وعندما همَّت بالخروج ناداها مستعطفًا:

- لا تنتظروني على الغداء اليوم لأني سأنام.

- طيب يا ولدي.. أنت ارتاح كم ساعة وسأوقظك عند العصر لنأكل سويًا.

عند الساعة السادسة والنصف وصل صالح إلى البيت مكشرًا عن أنيابه كالعادة، أو كمن يريد أن يفش غله على أهله.. ولِمَ لا وهي متعته التي دأب عليها... جلس على الكرسي المفضل لديه في الصالة وأشعل سيجارته ثم سأل عن العشاء.

بكل لطف إجابته لطيفة :

- العشاء جاهز .. اذهب لتبدل ملابسك وعندما تعود تكون الطاولة قد جهزت.

جلس الجميع على الطاولة.. فأخذ صالح ينظر حوله ومن فوقه وكأنه يريد أن يرى شيئًا ليشمت بزوجته وكأن إخفاقاته وتعاسته بل مصائب كل الدنيا بسببها.. ثم أخذ يقول:

- لماذا الأنوار نصفها مطفئ ونصفها خافت ؟ كل هذا توفير كهرباء.. ناويين تخسرون شركة الكهرباء.. أو المدام ما شاء الله من مناصري البيئة ! لماذا لا تنضمين لحزب الخضر ؟

- سمي بسم الله وكل يا رجل.. كفاية استهزاء.. عيالك معنا على الطاولة.. إذا لم تحترمني فاحترم نعمة الله التي على المائدة.

ثم نظر إلى ابنه سلمان وأردف قائلاً :

- مرحبًا يا ولد.. أراك ما زلت حي ترزق.. اليوم أنت وأمك كأنكم أبطال فيلم هندي. أنا أعلم أنه عند الصباح قبل المدرسة كل الأمراض تزور بيتنا.. أما الآن ها أنت مثل الجحش.

- بابا.. والله أنا مريض لكني أفضل الآن.. وهذه أول لقمة أتناولها هذا اليوم.

- هل تعرف لماذا ؟ لأن مباراة فريقك المفضل ستبدأ بعد قليل.. وستهدر كل وقتك مع التلفاز.. لا مذاكرة ولا هم... اسمع يا ولد، أنا عشت عمرك ولعبت ألاعيبك التي تلعبها علينا.. ما تقدر يا ولد تمشيها علي.

ثم التفت إلى لطيفة :

- هل أنا على حق؟ الم أقل لكي انه يجيد التمثيل.. هل صدقتني الآن؟ هيا انظري إليه.

- يا صالح الله يهديك.. الولد كان فعلا مريض.. الله يجزي الأستاذ خير أعطاه خافض حرارة وتركه ينام تحت الملاحظة لثلاث حصص.. والله الناس أرحم منا بأبنائنا.

- اسمعي مني هذه القاعدة.. يقال إن صداع هذه الأيام يأتي في الصباح وقت المدرسة ويذهب في المساء مع كرة القدم.

التفتت لطيفة نحو سلمان ورأت شدة التأثر عليه.. ومن يعرف الابن أكثر من أمه.. فقررت أن تغير الموضوع:

- ماذا حدث لمشعل ولد الجيران الذي حدثتك عنه؟ إن شاء الله أنهيت موضوعه مع الشركة!

- ذلك الغبي اتهموه بالاختلاس، لكني تدخلت وأنهيت الموضوع ونقلته من الصندوق إلى الاستقبال.

- عسى هذا لا يضرك أو يضر سمعتك.

- لا.. لا أبدًا.. كلمه واحدة منهم وأرمي الاستقالة في وجههم.. أنا كل من يتمناني.. عندما عملت معهم كانت المبيعات بالآلاف وزبائنهم يتعدون على أصابع اليد.. أما الآن مبيعاتهم بالملايين.. والفضل كل الفضل لي وجهدي.

- الله يعطيك العافية .. هيا يا أولاد قوموا اغتسلوا وراجعوا دروسكم.. سأكون معكم بعد قليل.

حكمة لطيفة بتغيير الموضوع أتت ثمارها.. كان كل ما عليها هو أن تدعه يتكلم عن نفسه وعن انجازاته، أو كما يقول المثل العربي " امدح الرجل وخذ كل ما في جيبه ".

وبينما كان الأولاد يهمون بالذهاب إلى غرفهم.. أشار صالح على ابنته دلال مناديًا:

- أنت يا بنت.. يا جميلة.. لماذا كنتِ صامتة طوال الوقت؟

- بابا أنا كنت أحل بعض الواجبات على العشاء، ما عندي وقت كفاية، لقد قتلونا بالواجبات، كل المدارس الخاصة يحلون الواجبات في المدرسة إلا هذه المدرسة الكئيبة.

- ما شاء الله عليكِ، طالعة على أبوكِ.. أنا متأكد أنك ستكونين طبيبة.. تمنيتُ لو أخوك صار مثلك.. أعرج ويريد أن يكون لاعب كرة قدم، وهذا كحلم إبليس في الجنة.

- خلاص يا رجل.. دع الولد وشأنه.. سيكون ما يقدر الله له أن يكون.

## ( ٤ )

في إحدى أيام العطل الأسبوعية.. جلس سلمان على شرفة البيت في نفس الزاوية التي تفضلها أمة حيث موقع الشمس عند الضحى.. وأخذ يتفكر في حاله وسأل نفسه:

- إلى متى هذه الإهانات اليومية؟ كأنني لست ابنه.. هل لأني أعرج؟ هذا ليس ذنبي.. إنه مقدر لي أن أعيش برجل واحدة.. لِمَ لا يراني؟ هل أنا شبح هذا البيت الذي لا يُرى ولا يُسمع؟ ماذا لو ماتت أمي من كثرة الإهانات المصوبة نحوها بشكل يومي؟ ماذا سيحل بي لو فعلاً ماتت؟ حتمًا سيسيطر العدم على حياتي.. حتمًا سيكون الألم ديدني ورفيقي.. كيف لي أن أتخيل فراشها فارغًا، وغرفتها بلا أثاث، وسبحتها ذي التسعة والتسعين خرزه مرمية على الأرض يدوس عليها أبي؟.

أحسَّ بغشاوة على بصره من حرارة الدمع الحائر في عينيه.. وتمنى لو أمه لم تخرج هذا الصباح لتعزي في وفاة زوجة أمام المسجد.. أراد التحدث إليها وأخذ ينادي باسمها مجردًا من كلمة ماما.. ولِمَ لا؟ وهي الصديق الوحيد في هذه الدنيا القبيحة.

أرادها أن تحتضنه وتضمه إلى صدرها كما تفعل دومًا .. أراد من يطمئنه لأنه ليس وحيدًا.. أراد من يخلِّصه من الظلمة التي

جثمت على صدره من كلمات أبيه اليومية الجارحة... ثم أخذ يتنهد ويقول:

- ماذا لو قتلتُ نفسي؟ هل سأكون بأفضل حال؟ لا هذا محال.. لن أستسلم.. لن أترك أمي وحدها مع هذا الشرير، بل سأبقى معها ما دامت حيه تستنشق الهواء وتشم الرائحة الكريهة من فم أبي كلما تكلم.. أنا لن أتزوج أبدًا ! سأنذر نفسي لخدمتها عندما أكبر، ولن أدع حاجه لها إلا فعلتها.. أتمنى أن تكون هنا الآن لتقرأ عليَّ أية الكرسي والمعوذات علَّها تريحني وتزيل الهم من صدري.

وفجأة سمع صوت ملاك.. صوت عذب دغدغ سمعه.. صوت لطالما عشقه.. إنه صوت أمه ينادي:

- أين أنت يا سلمان؟ انزل وانظر ما اشتريت لك.

- أنا هنا يا أمي في الشرفة.. تعالي أنت إلى هنا.

عندما دخلت الشرفة وقف وضمها إلى صدره وأخذ يبكي.

- ماذا بك يا بني؟ إذا كان أبوك من فعل هذا ! فدعك منه.. يا ولدي إن أباك طيب لكن يركبه الشيطان من حين إلى آخر.. لا عليك يا بني.. مهما فعل وقال يظل أبوك ولا غنى لك عنه أو كما يقول العرب " أنفك ولو كان أعوج " أنا على يقين أن حياتنا ستتبدل للأبد.. للأفضل طبعًا.

- لا يا حبيبتي.. أنا فقط أفتقدكِ عندما لا أراكِ.. أنا في خوفٍ دائمٍ من فقدانك.. أنت بالنسبة لي واحة الأمان، والشجرة المكسوة التي أستظل بظلها.. أنت الأمل عندما أفقد الثقة في نفسي.. أنت النور والدليل عندما أتوه في ظلمة الطريق.

صمت لبرهة ومسح دمعة يتيمة سقطت من عينه:

- ماما.. أنا أعيش في كوابيس فقط هذه السنة وكأن شيئًا سيئًا سيحصل.. هل لأني كبرتُ وأصبحتُ أُميز بين الصواب والخطأ؟ لا أعرف.. لا أعرف يا ماما.. ولكن شيء سيقع لي أو لكِ أو لكلانا! ماذا يكون ومتى سيقع؟ لا أدري.. ولكن قلبي يقول لي ذلك.. أنا لستُ مجنونًا يا ماما، إني أراه في مخيلتي!.

- حبيبي وعمري ونور عيني.. أنت أعقل الناس.. لا تقل هذا الكلام.. إنها فقط تهيؤات وخيالات مرحلة الشباب.. لن يحصل إلا الخير بإذن الواحد الأحد.. تعوَّذ من الشيطان وتعال لترَ ماذا اشتريتُ لك.

ذهبا إلى الصالة وأعطته الهدية المغلفة جيدًا وقالت له:

- هيا افتحها.

أخذ يمزق ورق التغليف على عجل.. ثم صرخ من الدهشة:

- يا ربي.. صنارة صيد.. يا الله.. هذه الصنارة من النوع الممتاز والتي طالما حلمتُ بها.

- بكم اشتريتِها؟

- لا عليك.. كل شيء يرخص لك أنت أيها الصياد الصغير.. عندما عدتَ أخر مرة من البحر قلتَ أنك أضعت صنارتك.. فقرَّرتُ أن اشتري لك أفضل منها.

- ماما، ممكن السائق يوصلني إلى البحر اليوم.. أريد أن أذهب.. فقط يوصلني ويرجع ويمكنه العودة لاصطحابي عند العصر كالعادة.. لن أذهب بعيدًا، كلها نصف ساعة بالسيارة من هنا.

- لا مشكلة.. لكن عدني أن ترتدي ملابس شتوية.. أنا ذاهبة الآن لأجهز لك وجبه غداء سفري مع بعض المشروبات الساخنة.

- شكرًا يا أحلى أم في الدنيا.. ولكن هل عندكِ عطر أو أي شيء ذي قيمة؟.. أريد أن أهديه لأحد الصيادين وزوجته.

- وكيف تعرَّفتَ عليهم؟

- كنتُ أشتري طُعم السمك منهم أحيانًا ودائمًا ما كانوا يضيفوني أحسن ضيافة ويقدمون لي المساعدة عندما أطلب.

قال هذا بغصة لأنه لم يكذب على أمه سابقًا.. ولكنه لا يريد أن يخبرها بما حدث له أخر مرة.

- ما شاء الله.. تبارك الله.. أصبح عندك أصدقاء من ورائنا.. لست بهين يا سلمان.. سأعطيك نصف توله من دهن العود الفاخر وأيضًا زجاجة دهن ورد الطائف.. ما أكثرهم عندي.. أبوك كل ما يسافر يجيب معه عطر.. وكأن راحتي كريهة!.

عندما ركب السيارة؛ أمر السائق أن يأخذه إلى المكان حيث وجده أخر مرة .. وعندما وصلوا لمح سلمان خيمة أبو سرور والخالة غنيمة.. طلب من السائق أن ينزله في هذا المكان، وأمره بالانصراف.

توجه نحو سكناهم وأخذ ينادي ولا من مجيب.. قرَّر أن يذهب بالقرب من البحر لينتظر ويجرب حظه.. عسى الله أن يرزقه بصيد ثمين يعدل ثمن الصنارة التي أهدته له أمه.. وعندما وصل إلى ذلك الشاطئ الصخري.. نظر إلى تلك الصخرة، وإذا هو يتذكر ما حلَّ به ذلك اليوم المشئوم..

تذكَّر كيف سقط في البحر، وكيف اكتشف أنه لا يقوى على السباحة، وكيف تشبث بأصابعه في فجوات تلك الصخرة.. تذكر الظلمة التي غشت عينيه.. ثم النور الذي سطع ليبشره أن هذا اليوم ليس هو اليوم الذي سيعود فيه إلى مرجعه؛ إلى خالق الكون؛ إلى من وهب له الروح والحياة.

ثم بدا يقول في نفسه:

- ماذا لو متُّ ذلك اليوم ! ولماذا يخاف الناس من الموت ؟ الموت هو الطريق إلى ذلك الشيء الآخر.. حتمًا ذالك الشيء الآخر أجمل من هذه الحياة الكئيبة، المليئة بالمذلة والخنوع لمن ليس بقلبه رحمة.. الموت هو الطريق الوحيد لأرحم الراحمين ودار النبيين والصديقين.. حتى نار ما بعد الموت ما هي إلا تقويم ورحمه من كريم عزيز.. أنا لا أخاف عذابك يا ربي.. إن شئتَ فاقبض روحي بيدك لا بيد أبي.

وبينما كان سلمان غارقًا في خيالاته ومناجاته.. إذا بذلك الصوت الجميل المبحوح ، والذي سمعة لأول مرة عندما أفاق من غيبوبته.. كان ذلك الصوت يناديه ويقول:

- يا صبي.. يا سلمان.. تعال إلى هنا.. قدماي لا تحملاني للوصول إليك .

التفت سلمان وقال:

- لبيكِ يا خالة.. أنا قادم بالحال.

- يا هلا ويا مرحبا.. افتكرنا والله أنك لن تطأ برجلك هذا البحر مرة أخرى .. أو كما يُقال "عمر الشقي بقي".

- والله اشتقت إليكم.. وفضلت الحضور إليكم لأشكركم.. وأيضًا لأقدِّم لكم بعض الهدايا البسيطة لأعبِّر لكم عن امتناني.

- تعال تفضل داخل الخيمة.. أبو سرور بالداخل، مسكين يعاني من آلام في الصدر والكتف، الله يعينه العمر ما يرحم.. اليوم ذهبنا إلى العيادة، ووصف له الدكتور بعض الدواء وأمره أن يرتاح مثل كل مرة ، لكن هذا الرجل عنده عناد يهد جلاميد الصخر.. هيا اجلس هناك بالقرب منه.

- السلام عليكَ يا عم أبو سرور.. على أجر وعافية إن شاء الله.

- الله يحييك ويبقيك يا سلمان.. ما شاء الله على أم سرور لمحتك من بعد كيلو.. وقالت هذا هو سلمان على البحر.

ضحكت غنيمة وقالت:

- وهل يخفى القمر.. عرفته من عرض منكبيه وطول شعره.

- تفضلي يا خالة.. هذا دهن عود تايلندي للعم أبو سرور، وهذا أيضًا دهن ورد طائفي لكِ أنت .

- لماذا كلفتَ على نفسك يا ولدي؟ ما كان لهذا داعي.. على كل حال مشكور واعتبرنا مثل أهلك من هذا اليوم.. والله يحيك في أي وقت.

- هذا واجب يا خالة.

- طيب.. تعال نفرش سجاده خارج الخيمة.. أبو سرور لازم يرتاح.. لازم ينام.. لازم ينام.

كانت تكرِّر كلامها وتقوله بصوتٍ عالٍ، كأنها تريد تذكيره بنصائح الدكتور.

جلس سلمان على السجادة حيث كان الجو غاية في الروعة يبعث على البهجة والسرور.. وكان شعاع شمس الشتاء الذهبي ينساب داخل الجسم ويدغدغه كما يدغدغ الحرير جسد العذراء ليلة زفافها.. بين الفينة والأخرى تكاد تسمع صوت أمواج البحر وهي ترتطم بالصخر لتزيل الصمت الذي يسود المكان.

ذهبت الخالة غنيمة إلى خيمة المطبخ لتحضر القهوة وشاي النعناع.

- يا مرحبا.. كيف حال والديك؟ وكيف أبوك؟ ما زال على غروره وجنونه!

- كيف عرفتِ ذلك؟ أنا لم أخبرك عنه!

- ولكنك ذكرتَ اسمه في المرة السابقة عندما كنت هنا.

- والله لا أذكر شيئًا مما قلت.. كأنه حلم لا علم.

-الحمد لله أنك طلعت على أمك.. تصرفاتك تدل على هذا؛ مع أني لم ألتقي بها قط.. أمك يا سلمان طيبة.. هكذا سمعت.. وبنت ناس طيبين ومعروفين.

- كأنكِ تعرفين أو سمعتِ بأمي أيضًا!

- نعم يا سلمان.. ولكني أريد نصحك أن لا تتبع خُطى والدك.. فدروب الشيطان يا بني قصيرة.. ومصير من يتبعها الهلاك وبئس ذلك اليوم عندما يأتي ميعاد الملاك.

- أخبريني الله يرضى عليكِ عن أبي إن كنتِ حقًا تعرفينه.. أنا لا أتحدث معه كثيرًا .. هو في وادٍ وباقي البيت في وادٍ آخر.. إلا بنت الدلال.. أقصد أختي المدللة دلال.

- وعندك أخت أيضًا !

- نعم.. أصغر مني بعامٍ واحد.

- سأخبرك بعض الشيء عن أبيك.. ولكن يجب أن تعدني أنك لن تخبر أحدًا أيًّا كان من أنسٍ أو جان؛ حتى أمك.

- أعدكِ بذلك يا خالة.

- أولاً : اسمح لي يا سلمان لو كنت قاسية قليلاً على أبيك.. ولكن أرجو أن تسمعني بقلب منفتح ومتسامح أيضًا، فأنا قد لا أكون هنا طويلاً ، لم يبقَ من العمر إلا أقل القليل.. أبوك أول ما تقدم ؛ تقدم لخطبة أختي الصغرى، وشاء الله أن يُمَلِك عليها.. وبعد شهر من المِلْكة ذهبتُ أنا وأختي إلى شقته البائسة لأمرٍ ما.. عندها كان يعيش في إسكان الشركة التي عمل بها سابقًا.. ووجدناه في حالة سكر ووضع مخل .. كانت شقته ملئًا بالمومسات.. والله أعلم.

تنهدتْ وأخذتْ رشفة من فنجان القهوة.. ثم أكملتْ تقول:

- قرَّرتْ أختي أن تخبر أبي ما شاهدته بأمِّ عينها.. لم يصدق أبي ما سمع، ولكن وبعد حين أمام إصرار أختي؛ ذهب إليه أبي وطلب منه أن يطلقها.. لكنه أبى واستكبر، أخذ يماطل ويهدد لعامين كاملين، وبعدها طلقها بعد أن لوَّث سمعتها وأخذ المهر الذي دفعه لأختي.

بعدها بشهرين تزوج عفاف وأنجبت منه محمد ونايف.. كنا قد حذرناها ولكنها لم تسمع، بل قالت إننا حُسَّاد ونريد فقط الانتقام منه.. عاشت معه خمس سنوات ورأت منه كل أصناف العذاب حتى ماتت.. ولكن جل الناس يقولون إنه هو من قتلها عندما اكتشفت خيانته وأرادت فضحه... وبعدها تزوج أمك المسكينة؛ وكانت قد رفضته أيام حياة والدها.. ولكن عندما مات والدها عاود الكرَّة، وأغرى جدتك بالمال حتى تمكن من الزواج من أمك.. عندما عرفتُ ذلك خِفتُ عليها، ولكن لم يكن لي حول ولا قوة.. خِفتُ أن لا تصدقني كما فعلتْ عفاف.

نحن أهل فريحه الأصليين يا ولدي نعرف كل أهلها وكل خباياهم.. أنا يا ولدي خائفة عليك، قد يكون أبوك مريضًا نفسيًا أو مصابًا بداء حُبِّ الذات والعظمة.. حاول ألا تصطدم معه مهما كانت الأسباب.. خذه بالسياسة كما تفعل أمك الآن.

كان سلمان ينصت ويتأمل في تعبير وجه الخالة غنيمة.. كان وجهها يحمر تارة ويزرق تارةً أخرى.. شعر بالرعب والحيرة والذهول في آنٍ واحد.. ظلَّ صامتًا ينظر إلى الفنجان الذي بيده ولم يتفوه بكلمة واحدة.

قطعت الخالة غنيمة حالة الصمت الذي دام لعدة دقائق وقالت؛ وكأنها ندمت على ما قالته أو ربما لتستدرجه على الكلام:

- أين أخواك محمد ونايف؟

- والله لم أرهم منذ إن كنت في التاسعة.. ولكن أمي تقول إن محمد يعمل في أحد فنادق مكة، ونايف في البحرية.

- اسمع نصيحتي يا سلمان مرة أخرى.. لا تصطدم معه وركِّز على دراستك.. لن ينفعك إلا ساعدك.

- إن شاء الله يا خالة.

- يا ولدي الخير فيمن صدَقك لا من صدَّقك.. أنا لو ما أحبك ما أخبرتك، ولجعلتك تكتشف هذا بنفسك.. ومرة أخرى لا تخبر أحدًا حتى أمك كي لا تجرحها.. يا سلمان أبوك لا يخشى ولا يستحي من الله، وهذا أمر خطير.. أبوك يخشى كلام الناس فقط.

ثم التفتتْ نحو الخيمة وأكملت:

- انظر إلى "أبو سرور".. قلبه كالورقة البيضاء الناصعة.. والأهم من ذلك كله أنه يخشى الله.. هل تتصور أن الفائض من الأكل يوزعه على الأسماك والطير والحيوان وحتى على النمل.. هكذا ما يجب أن تكون عليه يا سلمان.. واجعل قلبك بالحب عامرًا يا بني ولا تكره والدك، بل سايسه وساعده لا ضيم في ذلك.. هذه نصيحتي لك.

ثم قامت وقبل أن تعتدل هزته بكلتا يديها وقالت:

- هيا انهض الآن واذهب للصيد، وأنا سأطبخ الغداء.. اليوم سأطبخ لك ما لم تأكله طوال عمرك.. تأكد أن تعود قبل صلاة العصر.

obeikandl.com

## ( ٥ )

هناك في البيت.. كانت والدة سلمان قلقة وتتساءل في نفسها: مَنْ هؤلاء الأصحاب الذين ظهروا فجأة في حياة سلمان .. هل سيستغلون طيبته وسذاجته؟

كل دقيقه تمر يزداد قلقها.. كانت تتردد على النافذة وتترصد قرع جرس الباب؛ لم تكن كذلك في السابق، كانت دومًا تغمره بالثقة.. ولكنها كانت أكثر ما تخشى هو عودة صالح وسؤاله عن ابنه.

طبعًا هي لا تخشى الضرب، لأنه لم يضربها بيده قط، ولكن لسانه السليط هو من كان يضرب بقسوة.. هذا الإنسان يستمتع عندما لا يكتم شراسته وحقده الدفين على كل من يحبه، وكأن من في البيت كلهم أعداء... ثم أخذت تدعو لابنها: ( اللهم احفظه وأبعده عن أولاد الحرام ).

وفيما هي غارقة في هواجسها إذا بقُبلة على رأسها.

- كيف دخلتَ البيت، وتسللت من خلفي كالشبح؟

- ماما.. أنت من أعطاني مفتاح البيت، هل نسيتِ؟

- كنتُ قلقة عليك يا ولدي.. أين السمك؟ أين الصيد؟

- البحر خلى من السمك يا ماما، لا سمك في البحر.. أرمي الطعم وأسحبه ولا يتغير منه شيء، حتى سرطانات البحر اختفت.. ردم البحر ورمي النفايات قضى على السمك.. يجب أن أجرِّب منطقه أخرى؛ لكنها بعيده بعض الشيء من هنا.. والمناطق الجيدة والقريبة من هنا تم تشبيكها من كبار العقاريين ومِن مَنْ خلفهم.

- والله كبرت يا بني.. وأصبح صوتك جهوريًا كصوت الرجال.. كبرت بسرعة البرق يا صغيري ونور عيني.. كبرت يا وحيد عنقود كرمتي.. كبرت يا أطيب نسلي وعزوتي.. لا تلومني يا بني إذا ما قلقتُ عليك فأنت وحيدي.. وأبوك ذاك البخيل لا يريد أبناء أجبرني أن أعقم نفسي عندما أنجبتُ دلال، ودائمًا ما كان يردد : اثنان كفاية .

- ما قصدكِ يا ماما أنك عقمتِ نفسك؟

- ستفهم مع الوقت !.

- الله يعطيكِ العافية ويحفظكِ لنا.. وتبقى يدك هي العليا الممدودة ويد أبي هي السفلى المغلولة.

- عندي لك مفاجأة ..لا تذهب اليوم للعشاء مع أصدقائك .. بإمكانك دعوتهم هنا في البيت.. أبوك لن يعود الليلة.. الله يعلم

أين هو ! ممكن عند صديقه الأجنبي النجس.. ليسكروا ويلعبوا القمار - خزاهم الله-.

ثم نظرت إليه وقالت:

- ما كنتُ أقول ؟ أصبحت أنا والنسيان سيان.. نعم تذكرت.. على فكرة ، لقد جهزت اللحم وخلطته بالبهارات المنوعة والبقدونس والكزبرة والبصل والملح والكركم والزنجبيل وزيت الزيتون وكل ما تحب.. أسياخ اللحم جاهزة، ما عليك إلا شراء الفحم بعد صلاة المغرب.. وأيضًا يمكنك الطلب من أصدقائك أن يجلبوا معهم أفلام دي في دي لتشاهدوها هنا في البيت.

- شكرًا يا ماما.. هذه أول مرة سيدخل أصدقائي بيتنا.

فجأة رنَّ تلفون المنزل وذهبت لطيفة لتجيب وهي تدعو أن لا يكون زوجها قد غيَّر رأيه وأنه عائد إلى البيت.

- آلو.. نعم.. يا هلا سميرة.. خير إن شاء الله.. ليس من عادتكِ أن تتصلي في المساء.

- غدًا ستأتي سهام لتقرأ لنا الفنجان وتفك الفال، وأودُّ أن تكوني معنا.

ترددت لطيفة قليلاً لأنها بكل بساطة لا تؤمن بالتطير ولا الخرافات، ولكنها فرصه لتخرج من البيت وترفه عن نفسها.

- من سيأتي أيضًا؟

- نسوان الحارة.. لا يوجد غريب.

في اليوم الثاني ذهبت لطيفة على الموعد.

- أين النسوان؟

- على وصول، أنتِ مبكرة.. اجلسي واشربي شاي الينسون اللذيذ وطمئنينا عليكِ وعن أحوالك.. سمعتُ أن بنتك دلال اختيرت لمسابقة الموهوبين هذا العام وأنها صمَّمت جهازًا للمعاقين.

- نعم، قولي ماشاء الله، دلال كما تعرفين الكتاب صديقها الدائم، تفطر وتتغذى وتتعشى قراطيس وتشرب حبرًا سائلاً.. الله يحفظها ويبعد العين عنها.

- وكيف زوجك صالح وابنك سلمان؟

- صالح الله يهديه كما أخبرتك عنه.. داخل البيت وحش كاسر، وخارج البيت مثل الملاك الوديع.. كريم ونفسه حلوة مع الكل إلا معي أنا وأبنائه؛ كأننا سارقين حلاله أو ذابحين أهله.. ماذا تريدين مني أن أقول؟.. أما سلمان فهو طيب وبخير والأسبوع القادم عيد ميلاده.. محتارة ماذا أشتري له، الولد صار رجلاً وذوقه غير ذوقي، يريد دومًا أن يختار بنفسه.

- أنا عندي رأي.. اشتري له بيانو.

- بيانو !! لماذا ؟

- سلمان؛ حسب ما قلتِ؛ لا يحب ممارسة الرياضة ولكنه يحب سماع الموسيقى.. البيانو سيوسع آفاقه ويخفف من عزلته، وسيتعلم يقرأ النوتات.. ما أدراكِ، يمكن يصير موسيقار مثل عبد الوهاب أو فريد.. أولاد اليوم غير.. يتعلمون بسرعة ويشاهدون ما لم نشاهده أنا وأنتِ طيلة عمرنا.

- والله فكره جهنمية.. لم تخطر ببالي.. كنت أفكر أن اشتري له زجاجة عطر أو تلفون نقال مثلاً.

- ولكن كم أسعارهم ؟

- لا تشتري له بيانو محترفين.. يوجد أنواع رخيصة للمبتدئين.

رنَّ الجرس وهرعت سميرة نحو الباب..

- يا هلا يا مرحبا.. تفضلوا.. أين قارئة الفنجان ؟ لماذا لم تأتي معكم ؟

- في الطريق.. منزلها بعيد من هنا.. مع هذه الزحمة قد تحتاج إلى سنة لتصل إلى بيتك.

- لا مشكله.. الله يحيكم.. تفضلوا البيت بيتكم.

بعد نصف ساعة وصلت سهام؛ تلك المرأة البيضاء وعلى ذقنها وشمٌ أخضر على شكل زهرة شجر الزيزفون السوري.. شكلها يوحي إلى ناظرها أنها من غجر سوريا أو الأردن.. الابتسامة لم تفارق شفتيها الوردية وهي تحيّ الحضور.. ثم توجهت إلى سميرة وسألتها:

- أين القهوة العربية والفناجين؟.. لا أرى إلا أكواب الشاي.

- دقيقة واحدة يا سهام، وتكون القهوة جاهزة.

- اجعليها ثقيلة بعض الشيء.. وأريدك أن تسمحِي لي، لأن عليَّ الذهاب بعد نصف ساعة أو ساعة بالكثير.. جدولي مليء بالمواعيد، الكل يريد أن يقرأ فنجانه هذه الأيام.

قرأت سهام فناجين أغلب الحضور.. ولكن عندما ناولتها لطيفة فنجانها؛ أحمَّر وجه سهام، وأخذت تتأمل بالفنجان، ثم أشارت بيدها نحو المطبخ وقالت:

- سأقرأ لكِ فنجانكِ على انفراد إن لم يكن لديك مانع.

تنحنا جانبًا.. وأخذت سهام تحدِّق في الفنجان مرة أخرى وتميله تارةً لليمين وأخرى لليسار، ثم قالت:

- أعطني مئة درهم.

ناولتها لطيفة المائة درهم ويدها ترجف.. لأنها تخاف وتكره المنجمين والعرَّافين.

- هناك أخبار طيبة يجب أن أبدأ بها.. ستحتفلين خلال بضعة أيام، أرى ابتسامتك، وأرى أيضًا من يبتسم معكِ، قد يكون إنسانًا قريبًا جدًا إلى قلبك.. وهناك أيضًا خير سيأتيكم إما مالٌ أو ترقيه لزوجك.. انظري هنا! هل ترين تلك السمكة السمينة؟ الأسماك تعني الخير.. لكن أيضًا أريد أن أحذرك؛ هناك إنسان لا تحبينه ولا تكرهينه ولكنه يعد العدة لإيذائك.. فقط انتبهي جيدًا !.. انظري إلى تلك العين التي في الفنجان.. هل ترينها؟

- نعم أراها.

- أنا يا لطيفة خائفة يكون زوجك حاط عينه على وحدة غيرك؛ وحدة صغيرة.. انتبهي وافتحي عينيك...

هذا كل ما عندي.. والله أعلم.

ذهبت لطيفة إلى البيت وأخذت تتفكَّر في ما قالته سهام.. أيعقل أن كلامها صحيح؟.. كيف عرفت، ومن يخبرها بذلك.. لا يمكن أن يكون كلامها صحيحًا "كذب المنجمون ولو صدقوا".

وبعدين يا حسرة من أين سيأتي المال والخير الذي قالت عنه؟.. كل مال صالح يضيعه على ملذاته والقمار، الله يلعن الساعة التي عرفته فيها.

ولكن الوساوس أخذت مأخذها.. فصارت تذرع البيت ذهابًا وإيابًا...

بعدها ذهبت إلى الشرفة وأخذت تحدِّق في شجرة التين التي كانت قد غرستها قبل سنة، قالت في نفسها : هذا البيت منحوس، لماذا لم تثمر تلك الشجرة؟

ثم رمى إلى سمعها بعض الأصوات المبهمة وحركة أقدام.. لم تشأ أن تلتفت لأنه قد يكون ذلك الخنزير زوجها- كما كانت دومًا تسميه بينها وبين نفسها - .. وأخيرًا قررت أن تلتفت .. وإذا بـ(سيمياتي) خلفها تحمل سكينًا في يدها.

- ماذا تفعلين هنا والسكين بيدك؟ لقد أخفتني.

- مدام .. أنا خلاص في قطع بصل وثوم وزنجبيل .. وسمك جاهز.. إيش أسوي غداء.. مرقه سمك أو سمك بالرز؟

- لا تسأليني، افعلي ما تشائين.

- ولكن مدام ما في خضرة، ما في بطاطس.

- اطبخي بدون خضرة .. اطبخي بدون بطاطس .. اطبخي الموجود.. هيا لا تقفي هنا وتحدِّقي بي.. هيا اذهبي وافعلي ما تريدين.

استغربتْ لطيفة من ردة فعلها.. ولكنها عادت إلى هواجسها.. وأخذت تسأل نفسها : لماذا ذهبت إلى تلك المنجمة ؟ إلى تلك العرافة اللعينة ! إنها حتمًا كاذبة ، ويمكن نفس الكلام قالته

للعشرات من النساء التي التقت بهن اليوم !.. ثم قالت أيضًا في نفسها : أنا أعرف أن صالحًا فيه سيئات الكون كله، ولكن لا يمكن أن يتركني ويترك أبناءه.. نعم هو خنزير متوحش، ولكن حتى الخنازير تحب أبناءها وتعتني بهم.

أحسَّت لأول مرة أنها لا تكرهه ولا تريد فقدانه رغم كل شيء.. كم امرأة من أصحابي عوانس ويتمنين رجلاً مثل أو حتى أسوأ من صالح.. مهما كان هذا زوجي ووالد أبنائي.. ماذا قد أفعل بدونه وأين سأعيش لو تركني؟.. حتمًا سيرمي بي إلى الشارع لأكون لقمة سائغة لأولاد الحرام.. لم يبقَ لي في الكون إلا هو ! وهذا نصيبي وقدري في الحياة.. ماذا أفعل يا ربي ؟ هل أذهب إلى عمله وأسأل عنه ؟ هل استأجر من يأتيني بأفعاله ؟ هل اتصل على صديقه "أبو عبد الله" لأستفسر منه أو ليأتني بأخباره يوميًا ؟. إنه صديقه الخاص وبالكاد يفترقان، يراه أكثر مما أراه.

## ( ٦ )

هناك حيث يعمل صالح، كان حسين عباس مدير الحسابات يراجع دفاتر الحسابات؛ عندما دخل عليه عبد الرحمن، وهو فاتح فاه كالفقمة الجائعة وهو يتبسم كأنه يشمت بصديقه ورئيسه في آنٍ واحد.

- أحمل أخبارًا جيدة.. لك أنت بالذات.. أخبار يحبها قلبك.

- الفاضي يعمل قاضي.. أنا مشغول وما أنا فاضي.. اذهب وانشر أخبارك عند الفاضين والمتسكعين مثلك.. وبعدين أين التقرير الذي طلبته منك منذ أسبوع؟

- التقرير سيأتيك بعد يومين.. لكن خذ اقرأ هذا التعميم.. صالح المبهور أصبح المدير التنفيذي؛ أي رئيسك ورئيسي وله الكلمة العليا من اليوم ورايح.. الله يعيننا عليه وعلى طبعه السيئ.

- ماذا تقول يا رجل؟ لقد وعدوني بهذا المنصب منذ سنة ونصف!

- راحت عليك يا حبيبي.. أنت لا تعرف من أين تؤكل الكتف.. خليك دافن نفسك بالعمل والمبادئ.. هؤلاء القوم يعرفون كيف

يلعبونها .. أنت لا تجلس في مجالسهم الخاصة ولا تقضي الليالي الحمراء معهم.. راحت عليك يا حبيبي.

ثم أخذ عبدالرحمن يشمت أكثر وهو يغني: راح في الهوا شاشي وأنت ما تدراشي.

- سبحان الله .. في هذه الشركة كلما سرقت وساءت طباعك تصعد علوًا .. وكلما كنت صادقًا متفانيٍ ضربوا بك السيفون إلى المجاري.. أنا كنت أنوي أن أتقدم للتقاعد المبكر، إلا أنهم رفضوا وقالوا إن ترقيتك قريبة .. لا تخسرها وتخسر حلمك الذي عملت من أجله ، لا نريد أن نخسر كفاءة مثلك.. المشكلة يا عبد الرحمن أني صدقتهم .. المشكلة الآن أن الفأس وقع بالرأس ولصالح من ؟ لصالح سيء الذكر صالح .. والله إنها مصيبة يا وجه البومة.. أنك وجه نحس، لا تأتي إلا بالأخبار المتعفنة والسيئة؛ كعفن لحيتك وسوء هندامك.. هيا اغرب عن وجهي.. لا أريد رؤيتك.

- ماذا دهاك ؟ أنا ليس لي في المساءلة شيء .. وأنت ستقرأ التعميم إن آجلاً أم عاجلاً.. وأحببت أن اخبرك.

- طيب اجلس قليلاً .. سأكتب خطاب استقالتي وأريدك أن تأخذه إلى صالح.. لا أريد أن أرى وجهه التعيس، أو أُعطيه الفرصة ليشمت بي.

عندما دخل عبد الرحمن على صالح وهو في مكتبه الجديد الفاخر.. كان صالح يتحدث على التلفون.. ولكنه عندما شاهد عبد الرحمن وضع يده على السماعة وقال بصوت مرتفع:

- مَنْ أمرك أن تدخل؟ هل هي بوابه بدون بواب؟ هيا اخرج.. وإذا أردت مقابلتي مرةً أخرى يجب أن تأخذ موعدًا من ذلك السكرتير العجوز.

خرج عبد الرحمن وهو يرجف من الفزع.

قام صالح من كرسيه الوفير، وذهب ناحية الباب المصنوع من خشب الماهوقني الأمريكي وأغلقه بعنف وهو يردد: ناس رجعية ومتخلفة ما عندها أدب وأخلاق.

ثم عاد إلى التلفون ليكمل المحادثة مع مسئول التوظيف..

- معذرة.. باب المكتب مفتوح والناس داخلين خارجين بدون استئذان، ولا أحد يطرق الباب قبل الدخول.. أين الأخلاق؟ ناس ما عندها أخلاق!.

مسئول التوظيف كان يسمعه وهو منبهر.. ويقول في نفسه: "لم يتم تعينه إلا يوم أمس".. ثم سمع صوت صالح يصر ويلح:

- اسمع أنت مسئول التوظيف ويجب أن تتصرف الآن وبسرعة. يا أخي لا أريد هذا السكرتير العجوز.

أجابه مسئول التوظيف بأدب:

- هذا الرجل عمل في الشركة خمسة وثلاثين سنة.. عنده من الخبرة الكثير، وحتمًا ستستفيد منها.. وأيضًا لم يتبقَ إلا سنة عليه ويتقاعد من العمل.. ماذا تريدني أن أفعل به ؟ وأين سيعمل؟

- افعل ما يحلو لك.. خذه عندك واستفد أنت من خبرته.

- طيب.. سأجد حلاً.. لقد وضعتني يا صالح في موضع صعب.. ولكن سأجد حلاً لهذا الموظف المسكين.

- الحل عندي.. افتح باب التوظيف وأرسل لي السِير الذاتية للمتقدمات.. هل سمعت؟.. متقدمات، لا أريد رجالاً؛ بل نساءً فقط.

بعد شهر بدأت السِيرْ الذاتية تنهمر على مكتبه.. وفي أحد الأيام وصلته خمس وثلاثون سيرة ذاتية... بعد المراجعة والتدقيق؛ وافق أن يقابل ثماني عشرة متقدمة من صغار السن على وظيفة سكرتيرة... تمكن صالح من مقابلتهن جميعًا.. أغلبهن كنَّ من حديثي التخرج في المعاهد الخاصة، كما أن أغلبهن محجبات ومحتشمات.. وهذا بالطبع لا يروق لإبليس الإنس.. أو كما لقَّبه أحد الموظفين الذي سبق أن عمل معه.

عندما دخلت المتقدمة الأخيرة.. ومن النظرة الأولى؛ انتفض من مكانه كأنما لدغته عقربه، ثم دفع كرسيه إلى الخلف وهَمَّ واقفًا.. شيء لم يفعله لكل من سبق من المتقدمات.

- من فضلك اجلسي.. استريحي.

ثم جلس بعد ما تأكد أنها جلست.. تنحنح وقال وهو ينظر إلى المستندات التي أمامه:

- أنتِ شارين سميث.. أليس كذلك؟

- نعم.

- من أين أنتِ .. هل تقطنين هنا؟

- أنا أيرلندية الأصل.. وُلدتُ وعشتُ في بلد قريب من هنا.. وأحمل جنسيته.

- لهذا تتكلمين العربية بطلاقة وبلكنة أهل البحر التي أعشقها.

ظلَّت صامتة ولم تجبه، لأنها أحسَّت أن أسئلته شخصية وليس لها علاقة بالوظيفة التي تقدَّمت لها..

شعر صالح بتجاهلها.. ولكنه أصرَّ قائلاً :

- هل تعيشين مع أهلك؟

- آسفة.. أفضل عدم الإجابة.

- هل أنتِ متزوجة؟

- منفصلة.

شعر صالح مرة أخرى أنها بدأت تتضايق من أسئلته.. وقرَّر أن لا يسألها أكثر عن حياتها الخاصة..

- أنا آسف.. ما كان لي أن أسألكِ تلك الأسئلة.. ولكن طبيعة العمل تحتم عليَّ السؤال.. لأني أريد موظفه متفرغة، لا أريد من يأتيني بأعذار عائلية.. وأيضًا يجب عليَّ أن أرسل تقريرًا عنكِ.. هم فقط؛ أقصد إدارة التوظيف من سيقرر.

- لا تخف.. إنهم لا يعيشون هنا.. عائلتي لن تكون عائقًا لإتمام عملي على أكمل وجه.. أنا أحتاج العمل أكثر من أي شخص آخر، وأعدك أن أكون على قدر المسؤولية.

- اخبريني كل شيءٍ عنكِ.. أقصد أي إضافة إيجابية تريدين مني أن أكتبها في التقرير.. سأترك لكِ كامل الحرية.

- وُلدتُ وترعرعتُ في دوله مجاورة.. تزوجت وعمري ثمانية عشر عامًا .. انفصلت عنه وأكملت دراستي في المعهد العالي للإرسالية البريطانية.. عملت مدرسة في الروضة والابتدائي لعدة سنوات في مدارس الإرسالية .. تمكنتُ من الدراسة الجامعية في أوقات فراغي، وحصلت على البكالوريوس في إدارة الإعمال .. وبعدها عملت في وظائف متفرقة ومنها تدريس ومتابعة بنات وأولاد بعض رجال الأعمال.. أما الآن

فأنا أريد العمل في وظيفة واحدة ومستقرة.. لقد آن الأوان لأستقر وأبني مستقبلي.

- نعم هذه هي الحياة.. نبذل قصارى جهدنا لنحصل على البكالوريوس وعندها نعتقد أننا الوحيدون في هذا الكون.. ثم نكتشف أن هناك الآلاف مثلنا وأفضل منا أيضًا .. اسمعي يا شارين !.. سأفعل كل جهدي لأكتب لكِ تقريرًا يشفع لكِ.. أنتِ تعلمين أن هذا هو كل ما أستطيع فعله.

- شكرًا جزيلاً.

ثم أراد أن يفخر بنفسه .. وبدأ يتكلم كلام الأساتذة الكبار لتلاميذهم:

- يجب أن أقول لكِ.. هنا ستعملين مع المدير التنفيذي.. لا مجال للأخطاء .. إذا قُبلتِ لهذه الوظيفة ؛ سأجعل ذلك السكرتير العجوز يمكث معكِ شهرًا كاملاً ليدربك.. أريدكِ أن تصغي إليه جيدًا .

ثم استدرك قائلاً :

- كيف أتيتِ إلى هنا؟ وأين تقيمين؟

- جئتُ بالتاكسي.. وأقيم في فندق ليس ببعيد من هنا.

- الفنادق هنا ليست بذلك المستوى.. أرى أن نحجز لكِ غرفة في سكن الشركة لمدة ثلاثة أيام.. من يدري علَّهم يتصلون بكِ غدًا أو بعد غد.

ضغط على زر المناداة.. وفي أقل من ثانية دخل السكرتير المتفاني وقال:

- نعم سيدي.. أي خدمة.

- اتصل بسكن الشركة واحجز لها غرفه فاخرة.. وآتني بفنجان قهوة.

ثم نظر إلى شارين وقال:

- لا عليكِ.. وقت الغداء بعد نصف ساعة.. سأطلب من السائق أن يوصلك إلى الفندق لأخذ أمتعتك وتوصيلك إلى سكن الشركة.

- لا تكلف على نفسك.. أنا مرتاحة بالفندق.

- لا يجوز لبنت مثلك أن تسكن في فندق نجمتين.

تقرير صالح الذي رفعه إلى مكتب التوظيف كان صارمًا وواضحًا يمكن تلخيصه في كلمة واحدة: وظفوها... حيث أنهم اتصلوا بها في اليوم الثاني لعمل الفحوصات الطبية.. وما هو إلا أسبوع واحد.. وشارين سميث أصبحت موظفة.

# ( ٧ )

ذات مساء وهو عائد إلى البيت من النادي الصحي.. قرَّر أن يعرج إلى مكتبه لإنهاء بعض المعاملات وتفقد موظفي الأمن وإذا ما أطفأوا الأنوار حسب التعليمات التي كان أصدرها لتوفير المصروفات... وهو في الطريق إلى مكتبه رأى سكن الشركة على يمينه، فقال: يا ترى ما قد تفعله الآن تلك اللعبة الجميلة؟

أوقف السيارة وترجل منها ثم قال في نفسه: إنه ليس من اللطف أن أطرق عليها الباب في الليل، كما إني قد أتأخر على زوجتي وأبنائي.. لقد اعتادوا مجيئي إلى البيت عند الثامنة مساءً.

عاد أدراجه.. وعندما وقف أمام باب سيارته قال أيضًا في نفسه: فقط سألقي التحية عليها، لن أمكث طويلاً ..

توجه نحو باب غرفتها وطرق الباب طرقات خفيفة بحيث لا يوقظها لو كانت نائمة.. استغرب عند سماعها تنادي:

- من عند الباب؟

احتار قليلاً وفكر بما قد يقول لها.. ولماذا هو هنا من الأساس؟

- آسف.. إنه أنا صالح.. كنت عائدًا من المكتب وقلت أتوقف قليلاً لتحيتك.. لا يهمك.. أنا ذاهب.. المهم أنك بخير.

فتحت الباب بكل هدوء.

- هذا أنت .. لقد أخفتني.. افتكرت أنك حرامي أو ما شابه ذلك.

- حرامي ! لص ! لا يوجد لصوص هنا في سكن الشركة ثم إن اللص لا يطرق الباب بل يدخل من النافذة.. موظفي الأمن في كل مكان.

كانت تستمع له وعيناها العسليتان تشعان عاكسة نور المصباح الخافت الذي في الممر، ويداها على صدرها كأنها لا تريده أن ينظر إلى ما وراء ملابس النوم البيضاء التي كانت تغطي جسدها المضيء بالبياض الأوروبي.

- لماذا أنت واقف؟ تفضل أدخل.

- آسف اعتقدت أنه من المشين وغير الطبيعي أن أطرق بابك.

- لا عليك.. أنا أحب الأشياء غير الطبيعية.. وإلا لماذا أنا هنا.. كان أفضل لي أن أعمل في بلدي؛ هناك حرية أكثر مما عندكم، الناس هنا تقليديون ، مع إن شبابكم كلهم يأتون ويتسوقون ويستمتعون بأوقاتهم في بلدي... هيا تفضل، أنا سأدخل لتغيير ملابسي وأنت استرح على كنب الصالة.

وفيما هي في غرفتها.. أخذ صالح ينظر إلى صورها وصور أصدقائها على الجدران.. ولاحظ أيضًا الستارة الحريرية التي على النافذة، وكذلك السجادة الجديدة على أرضية السيراميك.

- لماذا أنت واقف؟ اجلس من فضلك.

- أرى تحولات عظيمة في هذه الشقة الصغيرة.. كأنك ستعيشين هنا للأبد.

- أتمنى ذلك.. ولكن اسمح لي، أنا لا أستطيع الجلوس على الكرسي.. سئمت من طول الجلوس في المكتب.. سأسترخي على السرير وأمدد رجلي.

شعر صالح بالراحة وكأن الحواجز بينهم قد زالت، فأراد أن يرفع الكُلفة معها؛ ولكن بالتدرج طبعًا.. وقال في نفسه: يا لها من فاتنة، اللعنة على زوجها، كيف يتركها تذهب منه، يا له من غبي أعمى.

- هل يمكنني أن أطلب منكِ شيئًا ؟

- بكل سرور.

- اسمعي.. أنت الآن تعملين معي.. وقد تشاهدين قوة شخصيتي في بعض المرات.. لا عليك.. هكذا ما يجب عليه أن أكون في العمل.. لا أريد لأي كائن من كان أن يعلم أني زرتكِ أو تحدثت معكِ، أو حتى تكلمت معكِ خارج نطاق العمل.

- اطمئن من هذه الناحية.. في المكتب أنت الرئيس.. ولكن هنا.. نحن.....

- نعم فهمت قصدك.. إخوان.

- نعم وأنت أيضًا مثل أخي.

استغلت شارين ما قاله عن الإخوة.. وبدأت تشكو له عن زوجها السابق وكيف أنه يشك في كل ما تفعل.. وكيف أنه يمنعها من كل ما تحب وهو يعمل ما يحلو له.. كيف أنه يمنعها حتى من تدريس الشباب وهو غارق في لذاته مع كل من هبَّ ودب.. وكيف أنها مرتاحة هنا؛ لأنه لن يستطيع التواصل معها وإقناعها بالعودة إليه.

وكان صالح ينصت ويتعاطف معها وكأنه ملاك مسكين لا يفعل إلا الخير..

أخذهم الوقت بالحديث.. ثم نظر صالح إلى ساعته وقال:

- لا يمكن أن تكون الساعة العاشرة الآن.. اعتقدت أنها التاسعة.. أنا آسف لقد جعلتك تسهرين معي.. لم يكن قصدي أن أطيل المقام.. يجب أن أذهب الآن.

نزلت معه السلم لترافقه إلى السيارة وتوديعه.. مهما كان فهو رئيسها في العمل... شغل السيارة وكرَّر النظر إليها ثم قال بخبث العجوز اللعوب الماكر:

- هل تريدين أن أخذكِ في نزهة على الكورنيش؟

- الآن ! هل جننت ؟ ولماذا أطفأتَ السيارة ؟

- انطفأت من نفسها.

- كيف ؟ ماذا حدث لها ؟

- هي لا تعمل إذا كان الكرسي القريب من السائق فارغ.. هيا تعالي اجلسي لتعمل السيارة.

ضحكتْ وقالت له:

- إذًا ابقَ مكانك حتى الصبح.. أو ليأتي أحد الركاب ليجلس بقربك...

طيب.. سأذهب لقفل الباب وأعود بالحال.

عندما عادت بعد خمس دقائق فتحت الباب الخلفي وقالت له:

- سأجلس أنا في الخلف.

- ولكن السيارة لا تعمل إذا كان الكرسي الأمامي فارغًا.

ذهب الاثنان في نزهة على الكورنيش.. شعرتْ خلالها شارين بالأمان معه.

obeikandl.com

عاد صالح إلى البيت عند الساعة الثانية صباحًا.. دخل البيت خلسة لأنه لا يريد إيقاظ لطيفة .. ولكنه وجدها في الصالة تنتظر قدومه وتسأله إذا تعشى أو لا.

ذهبت معه إلى الفراش، وعندما دخلت الحمام لتغتسل وتضع بعضًا من العطر الذي يحب؛ علَّه يحضنها ويقبلها ويشعرها أنها ما زالت لطيفة أم الأولاد.. أم سلمان ودلال.. زوجته العزيزة.. ولكنها وجدته كالجثة النتنة، شخيره كقطار الشحن الذي يخرج من الميناء كل صباح ويمر خلف بيتهم.. وقالت في نفسها : مسكين أبو سلمان تعبان من كثر العمل.

تكورت على السرير في صمت.. أخذت تحدق في السقف وتريد أن تشتكي، لكن لمن، ولماذا تشتكي ؟ هل تشتكي من الملل والفراغ، أم من حظها العاثر أم من الزمن؟ ماذا يفعل الزمن ؟ إنه لا شيء.. إنه مجموعة عذابات.. وحتى العذابات لا تحس بها ولا بمعاناتها.

تكرَّر غياب صالح عن البيت.. يوم يأتي مبكرًا ويخرج، ويوم يأتي الساعة الرابعة؛ وأحيانًا الخامسة صباحًا.

ذات مرة وقفتْ عند الباب الخارجي قلقه ومحتارة والدم يفور في رأسها.. وعندما دخل.. بادرته:

- أين كنت يا رجل؟ لقد أقلقتني عليك.
- لماذا القلق؟ هل أنا أصغر أبنائك لتقلقي علي؟
- يا رجل كان عليك أن تتصل على هاتف البيت.. فقط قل أنك ستسهر إلى الصبح.. لا تجعلني أعيش في قلق.. أنت ما زلت زوجي ومن حقي أن أخاف.
- لا تخافي.. أنا من ترقيتُ في منصبي وأنا أحمل همَّ الشركة.. لا أستطيع حتى حكّ شعر رأسي من كثرة مشاغلي.
- هل هذا فقط ما يشغلك؟
- نعم.. نعم، وما قد يكون غير ذلك؟.. والآن هل ستدعينني أدخل.. أنا مرهق للغاية يا امرأة.

مالت بجسدها قليلاً ليدخل البيت .. ثم أخذت تنظر إليه وهو يصعد الدرج وتقول في نفسها : كذاب.. هذا الرجل كذاب.. أقسم باسم من بعث محمد إنه كذاب، وتلك المنجمة على حق.

obeikandl.com

## ( ٨ )

نام صالح حتى العاشرة من اليوم الثاني.. استيقظ وهو ينظر إلى الساعة الجدارية وهو يتمتم بكلام غير مفهوم.. لم يأكل فطوره كالعادة، بل هرول إلى عمله.

لم تنم لطيفة طوال تلك الليلة، أو الليلة التي بعدها.. كانت مرهقة ومجروحة، وهواجس الغيرة أخذت منها مأخذها وبدأت تنهش في جسدها النحيف.. أحسَّت بالدوار والغثيان من قلة النوم، ولكنها أبتْ أن تنام، بل قرَّرت معرفة الحقيقة.. وشعرت أنها نامت طوال المدة التي قضتها مع زوجها، وأنها هي من أعطاه تلك الفرصة ليلعب بذيله..

تارةً تقول: هذا لا يمكن أن يكون.. وتارةً أخرى تقول إنها مخطئة، كيف تشك فيه وهي ليست على بينة.. من الممكن أن يكون فعلاً مشغولًا.. وتسأل نفسها: لِمَ لا يأتي إلى البيت للعشاء كالعادة ثم يذهب إلى حيث يشاء.. إلى النار وبأس القرار.

حاولت التظاهر بعدم اهتمامها، قالت أيضًا في نفسها: لِمَ أُحرق نفسي من أجله ، إنه لا يستحق كل ذلك.. المهم عندي أبنائي، هم ذخري ومستقبلي.

ولكن الخوف من المجهول أو أن يتخلى عنها كان هو همها الأكبر.. حيث كانت تحدث نفسها: ولكن ما حيلتي يا ترى؟ لا حيلة لي سوى أن أغمض عيني؛ كما كنت دائمًا أفعل.. ثم تقول: لا، هذا لن يكون مجديًا.. كيف اجعل غيري يسرقه في وضح النهار، لن أسمح بذلك حتى لو كلفني ذلك عمري.. أنا سأضيع من دونه بأية حال.. أين أذهب؟ ومن سيأويني؟.. لا أم ولا أب ولا أعمام أو أخوال.. وحيدة أنا في هذا الكون، ما عندي إلا هو بعد الله.. وماذا سأقول للجيران وماذا سيقولون عني؛ أهملته وضيعته، وها هو يجد من يعتني به.. وسيقولون أيضًا قولهم المعروف: لو فيها خير ما تركها الطير.

ثم أخذت تناجي ربها: إنها مصيبة يا ربي، وأنت سبحانك من قال على لسان نبيك الأكرم ( إذا أحبَّ الله قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع ).. لقد صبرتُ يا ربي صبر أيوب، فهل هناك من مخرج؟.. اللهم اهدهِ وأرجعه إلى بيته؛ ولو بعاهة مستدامة حيث لا يخرج من البيت أبدًا.

عندما اشتدتْ الهواجس أكثر في رأسها.. ذهبت إلى الخادمة وقالت لها:

- اليوم خذيه إجازة.. اذهبي وافعلي ما يحلو لكِ.

ثم توجهت إلى الصالة وجلست القرفصاء على الأرض، وأخذت تمشط شعرها وتحك أنفها؛ وكأن حساسية الربيع التي كانت تعاني منها عندما كانت صغيره قد عادت إليها.

دخل سلمان وأخته دلال البيت، وهرعا إليها وأخذا يقبلانها ويسألان:

- ماذا حدث لكِ يا ماما؟ لماذا أنفك أحمر وعيناك متورمتان.

- لا شيء.. إنها الحساسية.. لقد عادت إلي.

أجابها سلمان والهلع يغمره:

- سأذهب إلى الصيدلية واشتري لكِ دواءً لتلك الحساسية اللعينة.. منذ متى وأنتِ تعانين منها؟

- لا تذهب إلى أي مكان.. فقط اجلسوا بالقرب مني.

ثم قالت لها ابنتها دلال:

- ماما.. انظري إلى أنفكِ وعينيك، إنهم حمراوان.. انظري إلى شعرك، إنه مبعثر.

- اسمعوا يا أولاد.. سأذهب وأغتسل، وأنتم أيضًا اغتسلوا.. سنذهب للغداء في أحد مطاعم الكورنيش.. لن أطبخ اليوم.. لنستمتع بوقتنا.

وفيما هم على الطريق رأت لافتة مكتوبًا عليها "شقة للإيجار" وتساءلت في نفسها : كم يمكن إيجارها السنوي يا ترى ؟ وهل سيتنازل عن حضانة الأولاد ؟.. كانت تقول ذلك وكأنها عزمت على شيء ما.. ثم قُطعت أفكارها عندما سمعت دلال تقول :

- ها قد وصلنا.. إنه مطعمي المفضل.

عندما دخلوا المطعم طلب أبناؤها شرائح اللحم المشوي مع البطاطس، وطلبت هي طبقًا من السلطة اليونانية.. وما هي إلا لحظات؛ وبينما كانت دلال في المرحاض؛ حتى فاجأها سلمان بقوله :

- إنه أبي أليس كذلك ؟ كيف اختفت الحساسية فجأة ؟ ها هو وجهك بدأ يضيء كقمر منتصف الشهر.

- لا تحمل همًّا.. سوء تفاهم وسيزول.

جلست دلال مرة أخرى .. ولم يعرها أي اهتمام.

- الله يعينك على هذا المجرم.

التفت إليه دلال وكأنها فهمت ما يقصد.. وقالت بغضب :

- استحِ من نفسك.. ولا تقل هذا عن أبيك.

- بل هو مجرم.

تدخلت لطيفة :

- أشش.. اصمتوا يا أولاد.. نحن هنا لنرَّفِه عن أنفسنا، وأنتم قلبتموها مناحة كعادتكم.. اسمعوا أنا وأبوكم على خلاف بسيط، ولا أريدكم أن تتأثروا به.. خلاف الكبار يحله الكبار.. إذا تحبوني افعلوا هذا من أجلي.

- أمي أنا أعرف الكثير عن أبي.

- كلنا نعرفه جيدًا يا سلمان.. إنه أبونا.

- لا، أنا أعرف ما لا تعرفون.. ولكني وعدت تلك السيدة أن لا أقول شيئًا .

- ماذا؟.. سيدة ! أي سيدة ؟

- الخالة غنيمة، زوجة "أبو سرور".

- الخالة غنيمة ! أبو سرور ! عن أي شيء تتكلم ؟

- أصدقائي الذين يقطنون بالقرب من البحر.. الخالة غنيمة تعرف أبي جيدًا ، وقد قالت لي عن بعضٍ من مغامراته وسوء طبعه.

- هيا.. احكي لي ماذا قالت لك.

- لقد وعدتها أن لا أبوح بشيء.. ولكن يمكنني أن آخذك إليها وهي تخبرك.

أحسَّت لطيفة بغضب شديد.. كيف يمكن لتلك المرأة أن تحكي لابني ما لا يعنيها؟ وكيف تتدخل بشئون غيرها؟ اللعنة عليها.. ناس حاسدة.. مخربين بيوت. ثم قالت والشرر يتطاير من عينها:

- هل تعرف مكانهم؟

- السائق يعرف يا ماما.

- ممتاز.. لنأخذ الأكل سفري ونذهب إلى هناك.

قاطعتها دلال:

- أنا لن أذهب، أريد أن نأكل هنا.. من سنة لم نأكل خارج البيت، وعندما نخرج؛ تريدين أن نأخذه سفري.. لا والله لن أتزحزح من مكاني. يمكنكم الذهاب وأنا سأرجع إلى البيت مع التاكسي.

- لا يوجد في البيت أحد .. ولكن على أمرك، نأكل هنا ثم نذهب.

- أنتم أوصلوني إلى البيت واذهبوا حيث شئتم.. أنا أصلاً أكره البحر ولا أطيق رائحته.

عنفتها أمها بصوت لم تسمعه دلال من قبل:

- قلت لكِ.. لا يوجد أحد في البيت.

- إذًا سأمكث هناك وحدي.. أو يمكنكم أن تنزلوني في بيت الجيران عند صديقتي مرام.

- طيب.. لكِ ما أردتِ.

أنزل السائق دلال في بيت صديقتها مرام.. ثم توجهوا إلى البحر حيث يقع مخيم الخالة غنيمة.

عندما وصلوا قال سلمان لأمه:

- لا تنزلي من السيارة.. أنا سأذهب أولاً، ثم سأناديكِ.

- حسنًا.

اقترب من الخيمة بكل هدوء وكأنه يريد أن يفاجئهم.. وكان يقول في نفسه: كان يجب عليَّ أن أخبر أمي المسكينة.. ولكني بالطبع لن أخبرها، سأدع الأمر للخالة غنيمة، إن شاءت تخبرها أو أنا من سيخبرها.. ثم نادى:

- السلام عليكم.. هل هناك أحد بالداخل؟

- تفضل يا سلمان.. الله أتى بك.

- ما الخطب يا ترى؟ هل أنتم بخير.

- تفضل ادخل.

دخل سلمان وقبَّل الخالة غنيمة على رأسها. ثم توجه إلى أبو سرور ورآه شبه نائم؛ ولكنه يصدر أصواتًا من الألم وكأنها عويل ذئب مجروح.

- ماذا به يا خالة؟

- منذ الصباح وهو على هذا الحال.. لا يتكلم، ولكنه يصدر تلك الأصوات التي تسمعها.. أردتُ أن أتصل على ابنه سرور، ولكني لا أعرف كيف.. أردتُ أيضًا تشغيل السيارة وقيادتها إلى مركز أمن السواحل، ولكني لا أعرف القيادة.. يجب أن آخذه إلى المستشفى.. هل معك أحد؟ اسمع صوت محرك سيارة.

- نعم معي أمي والسائق.

- هل أخبرتها يا سلمان؟

- لا.. ولكن أنتِ من سيخبرها.

- وهل تظن أن هذا هو الوقت مناسب؟

- لا، طبعًا.. سأذهب لأخبر أمي.. أنتِ على حق.. يجب أن نأخذ "أبو سرور" إلى المستشفى بأسرع وقت.. دقيقة من فضلك وأعود بالحال.

- ماما.. هذا ليس بالوقت المناسب.. يجب أن نأخذ العم "أبو سرور" إلى المستشفى بأسرع وقت.. إنه يحتضر.

- هيا اذهب واطلب من تلك السيدة أن تأتي.. سأقول لها بعض الكلمات ثم نغادر بالحال من هنا.. من هذا المكان الكئيب.

obeikandl.com

- ماما .. يجب أن نوصل "أبو سرور" إلى المستشفى .. إنه يحتضر .. لن اتركه هنا وهو بهذا الحال .. ويمكنك أن تقولي ما شئتِ بعد أن نوصله.

- قلت لك .. اذهب ونادي تلك السيدة الشمطاء.

- ماما .. قلت لكِ لن أترك "أبو سرور" في هذا الحال. لقد أتى الوقت لأردَّ الدين وافعل ما يفعل الرجال.

- أي دين؟ عن ماذا تتكلم يا ولدي؟

- لقد أنقذني عندما غرقتُ في البحر .. لو ما الله ثم ،أبو سرور، والخالة غنيمة لما كنت هنا أتحدث إليكِ يا ماما .. من فضلك افعلي هذا فقط من أجلي.

لم ينتظر ليسمع جواب أمه، بل صرخ في وجه السائق بأعلى صوت ليخرج من السيارة ويذهب معه حيث يرقد "أبو سرور". حمل الجميع "أبو سرور" إلى السيارة وكان ممن ساعد في حمله لطيفة ..

هناك في المستشفى تم تشخيص حالته على أنها جلطه في الجهة اليمنى من المخ .. واستوجب إدخاله إلى العناية المركزة .. وذهبت الخالة غنيمة إلى بيت أختها في فريحه لتكون بالقرب منه .. ولكنها قبل أن تنزل من السيارة، التفتت إلى لطيفة وقالت:

- شكرًا .. هذا عشمنا فيكم.. الناس الطيبون يبقون طيبين.. إنهم كالذهب لا يصدؤون حتى لو قسى الزمن عليهم.

ثم أشارت بإصبعها نحو سلمان وأكملت كلامها:

- لا تخشي من عواقب الأيام.. اصبري وجاهدي يا أم سلمان.. ولا تخافي ولا تجزعي.. عندك سلمان؛ رجل ولا كل الرجال.. ما شاء الله عليه.

ثم نظرت إلى سلمان وكأنها نظرة وداع:

- أخبرها يا سلمان.. أخبر أمك كل ما حكيتُ لك..

obeikandl.com

## ( ٩ )

أما صالح فكان يعيش في نزوته.. ولم يعر مشاعر زوجته أي اهتمام.. ولم يكلف نفسه الاتصال والاطمئنان على بيته... بل هناك في مكتبه؛ كان يضغط علي زر المناداة.. وبعد لحظات قليلة دخلت عليه سكرتيرته وعشيقته شارين سميث وهي تتمايل بفستانها الدانتيل الأسود.. وكلما اقتربت فاح عطرها الباريسي بنسماته الممزوجة برائحة الياسمين الهندي والعنبر الأبيض.. نظر إليها وهو يتفكر: لِمَ ضغطت على الزر ؟ ولماذا هي هنا ؟ لا أعرف .. يمكن أريد فقط رؤيتها.. ثم فكَّر وقال:

- اقفلي باب المكتب ؟

- لا سيدي.. هذا مخالف لسياسة الشركة.. قد أتعرض للمسألة أو الفصل.

- قلت اقفليه من فضلك.. أي سياسات وأي نظام.. أنا النظام هنا؟

- طيب سيدي.. كيف أخدمك ؟

- أردتُ أن أسألك عن الأصوات العالية في مكتبك.. أكاد أسمع صوتك وأنا هنا وكأن أحدهم أهانك.

- لا شيء.. إنه فقط فني الحاسوب.. أتى لمكتبي ثلاث مرات هذا اليوم لإصلاح الطابعة .. وكلما قلت له أن يستبدلها يقول الميزانية لا تسمح.. اليوم لم أنجز أي عمل.. الحاسوب الذي ورثته من ذلك السكرتير العجوز بالكاد يعمل، والطابعة حدِّث ولا حرج.. يا سيد صالح الناس وصلوا المريخ ونحن ما زلنا نستعمل تلك الأجهزة المتهالكة.

- هل هذا فقط ما أغضبك؟

- نعم.. هذا فقط.

رفع سماعة الهاتف واتصل بمسئول الصيانة وقال بغضب:

- اسمع.. أريدك أن تذهب إلى السوق الآن وتشتري حاسوبًا أخر موديل وطابعة وتأتي بها إلى مكتبي.. عفوًا لا نقاش.. اجلب معك كل المستندات اللازمة لأوقع عليها، ولا ترسل ذلك الفني الكئيب مرة أخرى.. أريدك أن تتولى الأمر بنفسك.

- ما رأيك؟ حُلَّ الموضوع.. ألم أقل لكِ إني أنا النظام والسياسة.

- شكرًا يا عزيزي.. آسفة.. يا سيدي.. لا أعرف ما كنت سأفعل من دونك.

- لا شكر على واجب. أما بالنسبة لكِ.. فيجب أن أتصل بالأمن ليأخذوك إلى السجن يا لصة يا مجرمة.

- لماذا ؟ ماذا فعلت ؟

- سرقتِ عقلي وقلبي وفؤادي.. كل يومٍ تزدادين بهاءً وجمالاً.. كل يومٍ تكبرين في عيني.. كل يومٍ أزدادُ بك تعلقًا.. سرقتني يا شارين.. أشعر بالضعف كلما أراكِ ويتلعثم لساني كلما أردتُ أن أقول لكِ لا.. أو أردُّ لكِ طلبًا.

- لقد أخفتني بالبداية، ولكن النهاية بصراحة حلوة.. وسأفاجئك الليلة مفاجأة جميلة عندما تأتي إلى غرفتي على هذا الكلام العذب.. لم أسمع مثل هذا الكلام المعسول في حياتي.

تنحنح وهو يبتسم بخبث الثعلب المكار وأجابها:

- نعم.. بالنسبة لموضوع الليلة.. أنا أعتقد أنه يجب علينا التوقف عن رؤية بعضنا ولو لوقت قصير.. أعتقد أن هناك من يراقبنا أو يشك في علاقتنا.. حتى زوجتي أخذت تحاسبني وتطيل لسانها علي.. سأحاول أن أذهب إلى البيت لعدة أيام متتالية لأزيل الشك.. وبعدها نرى ماذا علينا فعله.

- كأنك تقول أنك لا تريد رؤيتي.. كلكم الرجال مثل بعض.. عندما تأخذون ما تريدون؛ تهربون وتختلقون الأعذار.

- لا يا شارين.. أردتُ فقط أن ألعبها صح.

- تلعب ماذا ؟ النساء لسن بلعبة في يديك .. إذا كنتَ خائفًا فلنتزوج.. يحق لك أن تتزوج اثنتين.. وبهذا يمكنني أن أضع إصبعي في عين كل من يتجرأ على الكلام.

- ليس الآن.. هذا الموضوع ليس بالهين كما يتهيأ لكِ.. يجب التروي والتفكير به مليًا.. هيا اذهبي الآن إلى مكتبك يا جميلة واقفلي الباب من ورائك.

- سأذهب.. ولكن لا تفكر حتى الاتصال بي.. افعل ما شئت.

هناك بالطرف الآخر كان فني الحاسوب عند زميله مدير الحسابات حسين عباس.

- والله يا "أبو عباس" تلك المرأة صار لها مخالب.. هل تصدق أنها صرخت في وجهي وطردتني من المكتب وكأني أعمل عند أبيها.. الله يلعن أباها.

- لا ضير في ذلك يا رجل.. أنت تعمل مع من هو أكبر من أبيها خبثًا ودهاءً.

- حتى صالح تغيَّر كثيرًا .. نعم كان خبيثًا وسيئًا، ولكنه الآن أسوأ من السيئ.. وهي تديره كالخاتم الذي في إصبعها.

- لا تخف.. حبل الغش والكذب والتحايل قصير.. كلها أسابيع معدودة أو أشهر وتأتيك الأخبار السعيدة.

- ماذا تقصد يا "أبو عباس"؟
- أنا مدير الحسابات وعندي جميع المستندات التي تدينه.. وسأقدمها في الوقت المناسب.
- أي مستندات؟.. أخبرني، سرُّكَ في بئر.
- هل تعلم أن كل المناسبات التي تقوم بها الشركة تُعطى إلى مؤسسة كوكب الزمان وشركاه.. هل تعرف لماذا؟ لأنه يملك خمسة عشر بالمائة من قيمة أسهمها، وهذا تضارب مصالح.. هل تعلم أن هناك الكثير من الأثاث والمكيفات تمَّ شراؤها ووقَّع صالح عليها بنفسه، ولا أثر لها بموجودات الشركة.. هل تعرف أين هي؟ ذهبت بقدرة قادر إلى بيته.. هل تريد المزيد؟
- يا الله.. كل هذا؟ ولكنك أيضًا مسئول.. كيف تمر كل تلك المعاملات من تحت يديك ولم تقل شيئًا.
- هو يلعبها بذكاء ولا يترك مجالاً للشك.. ولكني اكتشفتها عندما دققت.. التدقيق ليس عملي، لكني قمتُ به لأنتقم منه.. ولعلمك لم يبقَ على التقاعد إلا أشهر معدودة.. وعندما أستلم كل مستحقاتي سأقدِّم الملف كاملاً إلى دائرة التدقيق، وهم من سيلقنونه درسًا لن ينساه؛ كما فعلوا بغيره.. إذا هم غافلون أو متسترون؛ أنا لست كذلك.

- وهل ستذهب تلك الساقطة معه أيضًا ؟

- بعون الله نعم.. أنا مع أحد موظفي مكتب التوظيف نراجع صحة أوراقها والأختام التي عليها ومقارنتها بجميع المتقدمات.. هل سألت نفسك سؤالاً ؟ لماذا اختارها هي بالذات ولم يختر إحدى المواطنات الشريفات العفيفات ، مع أن بعضهن يحملن درجة الماجستير ولهن من الخبرة الكثير.

- ولكنهن لا يحملن الجمال والغنج ومداعبة ما بعد الدوام.

- المهم.. لا تخطئ وتبوح بشيء.. وكل شيء في وقته جميل يا جميل..

obeikandl.com

## ( ١٠ )

أراد سلمان أن يخبر أمه عن الذي سمعه من الخالة غنيمة.. ولكن أمه لطيفة ترفض في كل مرة وتقول: عفا الله عما سلف.. وكأنها تعلم ماذا سيقول، بل كانت تقول له: إن كل الناس خطاءون، وما أبوك إلا واحد منهم.. وأن لا يأخذ قول تلك السيدة على محمل الجِدْ.. بل عليه أن ينسَ ولا يشغل باله ويمضي في حياته... تقول هذا لابنها وقلبها يحترق من شدة الغيرة والهم الذي أصبح ديدنها ورفيقها.

وذات يوم.. قُرِع جرس الباب، وإذا بصديقتها سميرة تدخل بسرعة وتجلس على كنب الصالة.

نادتها لطيفة وهي واقفة ومندهشة:

- تعالي إلى هنا.. الناس يسلمون أولاً.. ثم يدخلون.

- السلام عليكم.. لكن أنا مستعجلة.. أريد فقط التحدث إليكِ على عجل.

- بسم الله.. خيرًا إن شاء الله.

- أين صالح زوجك؟

- في رحلة عمل قصيرة.. يعني يوم.. يومين.. ثلاثة بالكثير..

خير إن شاء الله ماذا عندكِ أيضًا لتقوليه ؟! أصبح بيتي مثل الشماعة.. كلٌّ يعلق غسيله عليه.

- أنتِ كنت في دار السينما معه ليلة البارحة ؟ أليس كذلك ؟

- لا.. صالح بالعاصمة كما قلتُ لكِ.

- يا غافلين لكم الله.

- حيَّرتني معكِ.. هيا يا نمامة.. نمي وانثري السم علي وعلى زوجي.

- الله يسامحك.. أنا نمامة.. هذا جزاء من يريد أن يفعل الخير.

- طيب أعطنا من خيرك واكفينا شرك.

- بالمختصر المفيد.. رأيت صالح في السينما يأكل الفشار وكأنه ابنك سلمان.. والله افتكرته سلمان، ولكن عرفته من الصلع الذي في مؤخرة رأسه.

- قلتُ لكِ.. أنتِ للأسف نمَّامة.. ولا يمكن أن تعيشي يومًا واحدًا دون أن تفرقي فيه بين زوجين.. أنا زوجي في العاصمة كما أخبرتك.. لقد اتصل قبل قليل ليطمئن علينا ويسأل عن حاجياتنا.

- الله يسامحك.. يقولون افعل خيرًا وارمه في البحر.. هل تريدين سماع ما سأقوله أو أذهب إلى بيتي؟

أخذ السرحان من لطيفة وراحت تتأمل بما قال قبل أن يخرج من البيت.. ثم قالت في نفسها: إذا كان ذاهبًا إلى العاصمة فعلاً؛ لماذا لم يأخذ معه الثياب والغتر.. لماذا ذهب ببنطلون الجينز والقميص الأسود؟!... ثم التفتت إلى سميرة:

- هل أنتِ متأكدة أنه صالح؟

- نعم.. كما أراكِ الآن.

- طيب.. ربما تغيَّر موقع الاجتماع وذهبوا إلى مكان آخر.. ربما اجتماعه مع أجانب ولم يستطيعوا إخراج الفيزا في الوقت الملائم.

- أقسم با لله أنكِ ساذجة وغبية.. قلتُ لكِ رأيته بأمِّ عيني ومعه سيدة صهباء.

- نعم! ماذا قلتِ؟ سيده صهباء ! ماذا يعني ذلك؟ هل هي جميلة؟ كم يكون عمرها؟

- لا.. بل عجوز، قبيحة .. ولا رجل في الكون يشتهيها.

- أعلم أنكِ كاذبة.. هيا أخرجي من بيتي.

- طيب أنا خارجة.. اللوم علي أني أتيتُ لأنبهك يا غبية.

تأوهت لطيفة ثم استدركت ما قالته:

- لا تخرجي.. أخبريني المزيد.. أخبريني كل ما رأيتِ.

- اسمعي، كان يجلس خلفنا مع تلك السيدة بثلاثة صفوف، ولم يجلسوا لنهاية الفيلم.. أنا كل دقيقة التفتُ وأنظر إليهم.. أنا متأكدة أنها لاحظتني.. وأخر مرة كانت تهمس في أذنه.. ثم قاما وخرجا من القاعة.

- هل تعنين أنهما كانا بالقرب من بعضهما؟ ملتصقين كالأزواج.

- نعم.. كعصافير الحب.

- قولي الصراحة.. هل كانت صغيرة وحلوة؟

- جميلة.. والله هذا العجوز عنده ذوق.. وقد يكون الماكياج.. أنتِ عارفه الماكياج يجعل العجائز شابات.

خرجت سميرة بنفس السرعة التي دخلت بها.

نظرت لطيفة إلى حالها في المرآة.. كانت عينها منتفخة من شدة البكاء، وعيونها محمرة كالجمر.. أغلقت عليها الغرفة وأخذت تفكِّر في الانتحار.. ثم قالت في نفسها: لن أقتل نفسي ولن أدخل النار من أجله .. ثم ذهبت إلى المطبخ وجلست هناك مكسورة الخاطر.. حتى الخادمة لاحظت ذلك ولم تجرؤ أن تتفوه بكلمة.

رجع الأولاد من المدرسة وأخذوا يبحثون عن أمهم، وعندما وجدوها في المطبخ قالت دلال:

- ماما عيناكِ محمرة.. ماذا بكِ؟ هل عاد أبي، أم أن الحساسية قد عادت؟

- لا شيء.. مجرد زكام.

- ماما نحن لسنا بأطفال، لقد كبرنا.. هل كنتِ تبكين؟

- لا.. لماذا أبكي؟ كنتُ أقطع البصل ولمستُ عيني بالخطأ.. وما زاد الطين بلة هو الزكام الذي لم يفارقني.

- آسفة.. اعتقدت أنكِ تبكين.. خفتُ عليكِ يا ماما.. اعتقدت أن أبي قد عاد وبدأ كعادته بمضايقتك.. الصراحة يا ماما أنا نفسي بدأتُ أتضايق من معاملته لكِ ولأخي سلمان.. لماذا يكرهكم؟

- أبوكِ يضايقني !لا حاشا لله.. إنه لا يفعل.

- أين أخوكِ؟ اذهبي وقولي له أن ينزل.. الغداء جاهز.

بعد الغداء جلست لطيفة لوحدها.. وأخذت تقول: هل تلك المرأة فعلاً جميلة؟ هل وجد من يسد مكاني؟ هل السبب أنا؟ هل لأني لا أعتني بنفسي وأضع الماكياج وأذهب معه إلى حفلاته الماجنة؟ هل هناك نساء يرضين ذلك لأنفسهن؟ هل العيب فيه أم في أنا؟

ثم قامت وتوجهت إلى المرآة، وأخذت تفرد شعرها وتتلمس الشعر الأبيض الذي غزى شعرها وهي في مقتبل الشباب.. حيث لم يتعدَ عمرها الخامسة والثلاثين؛ عشرون سنة أصغر من صالح.. وبعدها أخذت تهرول لتصعد الدرج.. سقطت عدة مرات، ولكنها كانت تقف بكل حزم وتكمل الصعود.. فتحت

صندوقها الخاص وأخرجت صبغة الرأس ودهنت بها شعرها.. ثم استحمت وتبرجت كما لم تتبرج من قبل. توجهت نحو الدولاب ولبست فستان عُرسها وأخذت تتأمل في المرآة وتقول : هل أنا كريهة إلى هذا الحد؟ أم أنه أعمى؟

شغّلت المذياع وبدأت ترقص كأنها الدجاجة المذبوحة التي ترقص من الألم وهي تضم الوسادة إلى صدرها.. ثم رمت بالوسادة جانبًا.. وأخذت ترقص بجنون.. تميل بجسمها يمينًا وشمالاً كرقص الغجر المجون.. تضرب بكلتا قدميها على ألواح الخشب التي تغطي أرضية غرفتها.

سمع سلمان وأخته صوت الموسيقى وتسللا خلسة إلى الجناح الجنوبي حيث غرفة أمهما.. وأخذا يقهقهان واضعين أكفهما على أفواههما.. لاحظت وجودهم ولم تعرهم أي اهتمام.. تجرأ سلمان وطلب أن يرقص معها، ثم دخلت دلال على الخط ترقص معهما أيضًا .. بعد حين قام سلمان وهو يلهث واضعًا يده على صدره وأقفل المذياع.. عندها ساد الهدوء.

نهرته دلال ولكنه صاح بها:

- كفاية لقد تعبت.. حرام عليكم.. هذا ليس بعدل.. أنتما ترقصان برجلين وأنا برجلٍ واحدة .

ثم نظرت دلال إلى أمها نظرة إعجاب وقالت:

- ماما تبدين جميلة كالعروس، ورائحتك من أروع ما شممت.. سأتبرج بعطر كعطرك وماكياج كماكياجك في حفل تخرجي.

جلست لطيفة على السرير تحاول التقاط أنفاسها وهي تقهقه وكأن ذلك الشيء الذي كان قابعًا على صدرها قد زال.. أخذت ترفع شعرها إلى الأعلى وتردد:

- انظروا يا أولادي إلى شعري ما أحلاه.

obeikandl.com

# ( ١١ )

عند العاشرة مساء يوم الجمعة.. سمعت لطيفة صوت سيارة صالح وهو يدخل مرآب السيارات.. كانت مستيقظة.. لم يغفو لها جفن.. ولكن الأولاد قد ناموا مبكرًا استعدادًا لليوم الأول من الأسبوع.

دخل صالح إلى الصالة.. كان يطبطب على بطنه ويقلب عود الأسنان بين شفتيه السوداوين من تدخين السيجار الذي أدمنه من سنين.. وقبل أن يضع قدميه على أول درجة من الدرج.. فاجأته لطيفة :

- هل تناولت عشاءك؟

- لقد أفزعتني.. اعتقدتُ أنكِ نائمة.. ولكن ردًّا على سؤالك.. نعم تعشيت.. ماذا عنكِ؟

- أنا أيضًا تعشيت.. وهل تريدني أن أنتظر سيادتكم يا حضرة المدير.

استغربت لطيفة من جرأتها.. نظر إليها صالح باستغراب أيضًا، ولكنه لم يتفوه بكلمة واحدة .. ذهب إلى غرفة النوم ولحقت به بعد ما أطفأت الأنوار وتأكدت أن جميع الأبواب مغلقة.

- كيف رحلة العمل إلى العاصمة؟
- ممتازة.. ولكن لا أحب زحمة السير هناك.
- لا شك أنك أيضًا كنت مزحومًا.. كزحمة العاصمة.
- ماذا تلمحين له؟
- أنت يا رجل.. أنظر إليّ.. عدني أنك لن تلعب بذيلك بعد الآن.
- احترمي نفسك وتعلمي كيف تتكلمين مع زوجك.. هيا اذهبي واخلدي إلى النوم في غرفة الأولاد.. ما هذا الأسلوب الجديد؟
- لن أذهب حتى تعود إلى رشدك.. والله فضحتنا عند الناس.
- أما أن تصمتي أو تنطقي خيرًا وبهدوء، حتى لا توقظي الأطفال والجيران.. ما أقبح صوتك عندما تتكلمين هكذا.. هذا الأسلوب لا يروق لي.
- ما شاء الله عليك.. والله تفهم الواجب والأصول.. وأيضًا خائف وحريص على راحة أبنائك.

أحسَّ صالح أن هناك شيء ما.. أما إنها عرفت شيئًا، أو إنها فقط أخذتها الغيرة لكثرة غيابه في الآونة الأخيرة.. فقرَّر أن يرضيها ببعض الكلمات التي اعتاد أن يقولها لها لمعرفته بطيب قلبها وتسامحها؛ وربما ضعفها.. تقدم نحوها ومدَّ يده ليربت على رأسها.. أمسكت بيده ودفعتها جانبًا، وبكت وهي تقول:

- لا تلمسني يا نجس.

احمَّر وجه صالح من تصرفها، لأنها المرة الأولى منذ أن تزوجا؛ تفعل وتقول ما قالته.

- هل جُننتِ يا امرأة؟ ماذا حدث لكِ؟ هل أنتِ مسعورة بداء الكلب؟

- يا صالح، بنات الناس لسن لعبة بين يديك.. أخذتني غصب عني عندما كنتُ شابة ساذجة، ووعدتَ أمي أنك لن تخونني أو تجرح مشاعري.. وها أنت تفعل عكس ما وعدت.. هل تذكر ما قلته لي لأقبل بك وأنا التي سبق أن رفضتك.. ما تفعله حرام.. والله عيب.. أنا تعبانة من حياتي معك.. حرام عليك.. أنا أيضًا بشر.. قدّر مشاعري ولو مرة في حياتك.

تذكر ذلك الكلام والذي سبق أن سمعه من شارين.. ثم أخذ يضحك وكأنها قالت فكاهة.. وأخذ يصفق ويقول:

- ما شاء الله على هذا الخطاب المرتجل.. أكيد تعلمته من المسلسلات التركية التي تشاهدينها ليل نهار.. كفاية كلام فاضي، تعالي ننام سويًا كالأزواج.. وفي الصبح سأحكي لكِ كل ما تريدين سماعه.

جلست لطيفة على الأرض وأخذت تبكي كطفل صغير أضاع لعبته .. جلس صالح على الأرض أيضًا وضمها إلى صدره متأسفًا وأخذ يطمئنها :

- لا تخافي يا قطتي الجميلة.. تعالي معي إلى السرير لأضمك إلى صدري وأجبر ما في خاطرك.

شعرت لطيفة براحة داخل قلبها وكأنها انتصرت عليه وعلى غريمتها المجهولة .. ولكنها أصرت على أن تأخذ منه بعض الضمانات والعهود..

- هل تعدني يا صالح أن لا تقترب من تلك المرأة الصهباء ؟

هدوء صالح المفتعل زال فجأة وهو يسمع رجاءها.. وعاد إلى طبيعته العدوانية..

- أنا لا أحب من يقول لي افعل أو لا تفعل.. سأفعل ما يحلو لي.. سواء رضيتِ أو لم ترضي.. حياتي وأنا حُرٌّ فيها.. هل تفهمين أم أكرِّر ما قلت ؟.. أما بالنسبة للمرأة التي في مخيلتك .. فأنصحك أن تذهبي إلى شيخ الحارة ليقرأ عليكِ.

- سبحان الله .. الطبع غلاب .. إذًا أنت تصر على رؤية تلك العاهرة التي كنت برفقتها في السينما.

- حسبي الله ونعم الوكيل.. أنا متزوج مباحث أو بوليس سري لا قدر الله.. هيا قولي، ماذا قالوا لكِ أيضًا ؟

- هل ستتوقف عن رؤيتها ؟

- لا.

- إذًا سأترك البيت لك ولها.. الله يهنئكما.

- على الرحب والسعد.. افعلي ما يحلو لكِ.. وتأكدي أن جميع الأبواب مغلقه عندما تخرجين.. أنا عندي عمل مهم غدًا ولازم أنام.. هيا اذهبي.

استلقى على السرير، ولكنه لم يستطع أن ينام، وأخذ يسأل نفسه: كيف عرفتْ بشأن شارين سميث ؟ ولماذا قالت إنها صهباء ؟ وكيف عرفت إنني كنت في السينما وليس العاصمة ؟ لا بد أن يكون أحد من الجيران قد شاهدنا وأخبرها...

قُطِعتْ أفكاره عندما سمع صوت ابنته.

وعندما ذهب إلى حيث صوت ابنته.. وجد لطيفة توقظهما وهما يفركان عينهما، ويتساءلان عن سبب إيقاظهما في تلك الساعة المتأخرة من الليل.. شاهدا أبيهما، فهرعت دلال إلى أبيها بكل حماسة:

- بابا،الحمد لله على السلامة.. منذ متى وأنت هنا؟ اشتقنا إليك.. أمي أيضًا اشتاقت إليك ولكنها كانت مريضة.. لكن اليوم أراها بخير.

لم يرد عليها، بل نظر إلى لطيفة والشرر يتطاير من عينيه:

- ماذا تفعلين؟ لماذا أيقظتهما؟

- لأني سآخذهما معي.

أمسك صالح بلطيفة من شعرها.. وبدأ يسحبها كالنعجة يوم العيد بدون أدنى رحمة.. وهي تصرخ والولدان يصرخان.. أخرجها خارج الغرفة.. ثم التفت نحوهما وأمرهما أن يخلدا إلى النوم.. توجه نحو لطيفة والتي كانت مستلقية على ممر الدور العلوي تصرخ من شدة الألم..

- خذي ما شئتِ من البيت؛ إلا الأولاد؛ واذهبي حيث شئتِ.

- أنت قذر.. أنت خنزير.. والله لو اغتسلتَ ألف مرة لن تطهر.. لقد لوثتني معك ولوثت سمعتنا.. ماذا نقول للناس والجيران.. كنت أعرف أنك نذل، ولكن لم يخطر ببالي أن نذالتك ستكون إلى هذا الحد.. والله قال لي أبي وهو على فراش الموت : لا تأخذي لكِ زوجًا إلا أن يكون من أهل الصلاة ولو كان عبدًا مملوكًا. وها أنا أعيش مع جرذ كافر.. حسبي الله ونعم الوكيل.

أخذ صالح يفرك يديه ويصرر على أسنانه من شدة ما سمع منها. توجه إليها ويده مرفوعة.. نظرت إليه كالنمرة المجروحة وقالت له بكل شجاعة وبأسنان بارزة:

- اضرب يا جبان.. هيا اضرب لو كنت رجلاً.. أنت أصلاً لا تقوى إلا على النساء الضعفاء.

أنزل يده وقال:

- اذهبي حيث شئتِ.. اذهبي حتى لا أرتكب جريمة في حقك.

- وهل اعتقدتَ للحظة أني سأبقى معك وأشتم ريح فمك القذر.. والله لو متُّ جوعًا واشتغلتُ في ملهى ليلي لن أندم.. بل سأكون أسعد الناس ببعدي عنك.. يا الله أشكرك أنك فككت قيدي وحررتني بعد ما استعبدني هذا الإبليس.

هرولتْ نحو الخزانة وأخذت عباءتها.. ثم ركضت نحو الباب الخارجي وهي تبكي وتلعن اليوم الذي عرفته به.. فتحت الباب الخارجي بقوة وإذا بها في الشارع.. قطعت الشارع إلى الجهة المقابلة وأخذت تحملق إلى غرفة أولادها المضاءة والدموع تنهمر بغزارة من عينيها.

جلست على الرصيف عَلَّ أحدًا من أبنائها يفتح النافذة ويلوح بيديه.. وعندما رأت النور قد انطفئ أخذت تمشي لا تعرف إلى أين.. كان كل همها أولادها وكانت تقول في قرار نفسها : كيف

سينامان من دوني ؟ كيف سيأكلان ؟ من سيرتب لهما ملابسهما كل صباح ؟ هل أعود إليه ؟ وأرجوه أن يقبلني كخادمة لهما فقط لا غير !!! كيف سأعيش ومن أين سآكل وأشرب.

جلست تحت إحدى الأشجار وأخذت تدعو : يا ربي أنا وحيدة.. وها أنا وكلت أمري لك .. فافعل بي ما شئت .. إن كنتُ قد أغضبتك فأنت مولاي وأنت الرحيم الغفور .. وأن كنتَ راضيًا عني فخذني إليك أو خذ بيدي.

أخذت تمشي من غير هدى لعدة ساعات .. لم تخف من شيء خاصة إنها المرة الأولى في حياتها التي تمشي بها خارج البيت ليلاً.. لم يتعرض لها أحد أو يلتفت عليها.. حتى سيارات الشرطة لم تقف لتسألها أو تقدم المساعدة... بعد ساعات من الهيام توقفت عند الحديقة العامة .. جلست بالقرب من البوابة وغفت حتى طلوع الشمس.. عندما استيقظت قالت : ماذا أفعل الآن يا ربي ؟

قرَّرت أن تأخذ سيارة أجرة لتوصلها إلى منزل صديقتها النمَّامة سميرة..

- مرحبًا.. ماذا حدث لكِ ؟ شكلك مزري.

- دعيني أدخل.. لأحكي لكِ يا مخربة البيوت.

- أنا مخربة بيوت.. لماذا ؟ كفانا الشر.

دخلت لطيفة ثم هرولت إلى المرحاض لتغتسل وتصلي صلاة الصبح..

- ماذا حدث لكِ؟

- طردني النذل من البيت عندما واجهته بالحقيقة.

- ما كان لكِ أن تفعلي هذا.. كيف تخرجين من بيتك؟ شرعًا إنه بيتك لا بيته.

- ماذا تريدين مني.. أن أرقص مثلاً.. وأنا أسمع أن زوجي مع عاهرة؟

- لا طبعًا.. لكن كان يجب أن تستدرجيه حتى يقول هذا بنفسه.

- أنا أعرف زوجي.. هو لا يتكلم.. هو فقط يشتم ويتآمر على من هو أضعف منه.. هذا هو صالح الذي أعرفه..

المهم أنا سأجلس عندك لبعض الوقت لأتدبر أمري.. عندي بعض الذهب والمدخرات التي قد تكفيني لسد حاجتي في الوقت الحاضر.

- هل تريدين مني أن أذهب وأتحدث إليه؟

- لا أبدًا.. أنتِ بالذات ابعدي عن الموضوع.. وأنا لن أرجع إليه ولو فرش لي الأرض ذهبًا وألماسًا.. الصراحة كل همي كان أبنائي.. سأحاول أن أراهما عندما يعودان من المدرسة غدًا.

- على الرحب والسعة.. لكن أريد أن أخبرك شيئًا .. كل الرجال هكذا ، وكل بيت فيه من المآسي ما يدمى له الجبين.. حتى زوجي هكذا.. كل يوم يقول إنه سيتزوج أخرى.. ولكني اصبر واحتسب وأدعو الله أن يهديه أو يعمي بصره.. إنهم كالأطفال عندما ينتهون من لعبه يقفزون إلى الأخرى.

- لقد خربتِ بيتي يا سميرة.. تمنيتُ أنكِ لم تقولي شيئًا .

- لا عليكِ.. لعله تعلم الدرس.. وسيأتي إليكِ زاحفًا ذليلاً.

- أنا لن أعود إليه مهما استرحمت دقات قلبي.. ولن أطيع قلبي بعد اليوم.. هو من خان العهود ومزَّق الوعود وبدأ بالصدود.. لقد اتخذتُ قراري ولن أعود.. لقد وكلت أمري إلى الله الواحد المعبود.. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..... لقد كُسر القيد يا سميرة.

-ونعم با لله.

- اسمعيني جيدًا يا سميرة... أعرف أنكِ لا تكتمين سرًا.. ولكن من أجلي ومن أجل الصحبة.. لا تخبري أحدًا كان من كان.. لا أريده أن يعرف أين أنا.. ولا أريد أن نكون حكاية حارتنا.

obeikandl.com

## ( ١٢ )

استيقظ صالح من نومه المتقطع.. وجلس القرفصاء فوق سريره الفارغ.. شعر بالاضطراب والقلق كما لم يشعر طوال السبعة عشر عامًا من زواجه.. أحسَّ أن كيانه اهتز، وكأن غروره وتبجحه رُدَّ عليه من تلك الأم الطيبة المطيعة والتي صاغها لتكون كذلك... وأخذ يتساءل: كيف يمكنها أن تترك البيت هكذا؟ حتى ولو أمرتها وأنا في حالة غضب! كيف تترك فلذات قلبها وتهرب؟ ماذا فعلتُ لتقوم بكل ذلك الفعل والقول الشنيع؟ والله غريب هذا الحدث من تلك المرأة الغبية! اعتقدتُ أنها ستذهب إلى غرفة الضيوف كعادتها لتجلس هناك ثم تعود إلى رشدها!.

ثم تساءل أيضًا -وهو في حالة نكران لما حدث-: للرجل كل الحق أن يرَّفِه عن نفسه بين الفينة والأخرى، وأن يتغيب عن بيته إن شاء كما تفعل الضواري في الطبيعة.. هكذا هنَّ النساء ينسين أن لهن شريكًا في البيت يحميهن ويؤويهن.

ثم بدأ يلومها ليريح غروره: لِمَ لا تلبس مثل نساء الغير وتتبرج لي كلما أتيتُ إلى البيت؟ لماذا تتبرج فقط لصديقاتها البائسات عندما يزرنها؟ هي ميتة عاطفيًا وجسديًا.. كل همها المطبخ

والسوق.. لا مشاعر لها.. أضع يدي هنا وهناك ولا تستجيب إلى رغباتي؛ كأني أتحسس قطعة من الخشب المطلي.. لماذا تريد أن تحرمني من شارين سميث التي تذوب من الوله على صدري كرذاذ ندى عندما يلامس صفيح ساخن.. عجبًا من هؤلاء النساء ! لقد نسيتْ كل العطايا والهدايا.. نسيتْ من كان يقف معها أيام مرضها.. نسيتْ أني أنا من ستر عليها واسكنها في أحسن مسكن وصنع لها المقام والمقال بين الناس بعد ما كانت حافية.

كيف لا تعرفني مع كل تلك السنين التي قضيناها معًا ؟ كيف تأمرني وأنا لا أحب من يأمرني، حتى ولو كان أبي.. أنا من صنعتُ نفسي بيدي ولا فضل لأحدٍ علي.. كيف تقول: لا تقرب تلك المرأة ؟ كيف تجرأتْ أن تقول: يا أنا يا تلك المرأة ؟ كيف تهددني بأنها ستترك البيت مثل الخدم والعمال.. من هي لتملي علي ما أفعل !.

لم يفكر صالح ولو للحظة أن لزوجته كرامة، وأن تلك الكرامة قد أهينت.. لم يفكر يومًا أن الكرامة عندما تُسْلب تأخذ معها الأخضر واليابس.. لم يفكر قط أن ما فعلته وقالته ما هو إلا دليل حب وخوف من فقدان إنسان عزيز عليها.

بل أخذته العزة بالإثم.. وقرَّر أنه لن يقلق عليها.. بل لن يذهب للبحث عنها أو حتى السؤال.. وقال في نفسه : ولِمَ أقلق ؟ هي من اتخذ القرار ، وهي من سيجني عواقبه ، إنها ليست بطفلة ساذجة وتعرف مصلحتها.

أما سلمان فظلَّ مستيقظًا طوال الليل ولم يغفو له جفن.. لم يستطع القيام وإضاءة نور الغرفة خشية أن يستيقظ أبوه.. ولكنه تمكن من خطّ بعض من مشاعره في يومياته حيث كتب يقول : ( في هذه الليلة السوداء.. سأنام للمرة الأولى بدون أمي.. لن أنسَ هذه الليلة ما حييت.. ولن أنسَ كيف أن أبي أغلق أقفال النوافذ والأبواب كما لو أن أمي سترحل للأبد.. يا له من فقدان ويا لكآبة هذا المكان.. ها أنا ذا أصبحت يا أمي عدمًا من دونك، من دون حبي وسندي. أمي لم تغادر البيت.. بيت أمي هنا في قلبي.. أقسم أني أسمع دعاءها وهي تصلي الآن.. ستعودين يا أغلى الناس، وسيخرج من أذلّك ذليلاً مدحورًا.. يا رب احفظها واستر عليها واجعلها بركة لنا أبد الآبدين... أمين)...

ثم ختم ما دوَّن في يومياته:

( لا أدري يا أمي.. لا أستطيع النوم.. أشعر وكأن هناك صخرًا ثقيلاً يقبع على صدري.. اسمحي لي، لا أستطيع النوم.. بل لن

أنام حتى أراكِ هنا بالقرب مني.. لأشتم رائحة الياسمين الذي يفوح من شعركِ.. وأقبِّل يديك الطاهرتين.. ولكن كان عليكِ أن تخرجي لتكسري القيد الذي على معصمك وتتحرري من هذا السجن الكبير.

أما دلال فكانت مشوشة الفكر، ولم تستوعب ما حدث.. استيقظت وتوجهت إلى طاولة الطعام كعادتها أملاً أن ترى أمها.. هناك لم ترى إلا الخادمة والتي سألتها:

- أين مدام؟

صمتت دلال ولم تجب.. وعندما جلس سلمان قالت له دلال:

- الخادمة تسأل عن أمي.. ماذا أقول؟

- لا أعرف .. قولي إنه ليس من شأنها.. لا بل قولي إنها في المستشفى.

نزل صالح من غرفته وكأن شيئًا لم يكن.. أخذ يداعبهما كأنه يطمئنهما بأن كل شيء بخير حتى بدون أمهما.

- هل شربتما الحليب وأكلتم الفطور؟

- نعم بابا.

- أريدكم أن تأتيا معي إلى الغرفة.. هناك بعض الأمور الجادة التي أودُّ التحدث بها معكما.. لا تقلقا.. ستكون أحاديث عائلية.

عندما دخلوا الغرفة.. أغلق الباب.. ثم فتح الدرج وأخرج علبتين من الهدايا وأعطاهما إياها.

- لا تفتحاها الآن.. يمكنكما فتحها بعد المدرسة.. أنا متأكد أنها ستعجبكما ولطالما حلمتما بها.. كما أريد أن أرجوكما أن لا تقلقا لخروج أمكما وهي قلقه ليلة البارحة.

قاطعته دلال:

- أين هي؟ أين ماما؟

- جاءها اتصال من بيت عمها وقالوا إنه مريض للغاية.. لقد أقلقها ذلك كثيرًا .. حاولتُ أن أبقيها إلى الصبح ثم أوصلها ولكنها أصرت على الذهاب.. كانت تريد أخذكما معها.. ولكني رفضت وهذا ما أغضبها .. كيف اسمح بذلك ؟ ماذا عن المدرسة.. وماذا عني كيف سأعيش بدونكما ولو لأيام معدودة.

قاطعته دلال مرة أخرى:

- ولكنها كانت تبكي!

- أكيد.. هل تريدينها أن تضحك مثلاً؟ يجب أن تبكي، إنه عمها.

سلمان لم يصدق أي جزء من هذه القصة، وكان ينظر إلى أبيه بريب.. ولكنه أراد المشاركة في الحديث:

- ومتى ستأتي؟

- متى ما شفي عمها من مرضه.. وهذا قد يستغرق بعض الوقت عليكما بالصبر.

ثم قال ليطمئنهما أكثر:

- من اليوم أنا من سيوصلكما إلى المدرسة.. وسأحاول أن أتناول الغداء معكم كل ما سمح لي الوقت.

صرخت دلال بفرحه غامرة:

- يا سلام.. من زمان لم نجتمع معك وقت الغداء.. هل يمكن أن أجلب صديقتي معي؟ دائمًا تسألني عنك.. هل أنت مشهور يا بابا مثل الممثلين؟

- نعم يمكنها تناول الغداء معنا والتصوير معي أيضًا ..

obeikandl.com

# ( ١٣ )

الأمل والإيمان بالله كانا نديمي لطيفة.. ولكن الأسى والحزن أخذا كل طاقتها.. لم تشعر بالتعب، ولكن ما كان يتعبها هو الشوق إلى فلذات كبدها.. هي بالكاد غفت لنصف ساعة في بيت سميرة.. وعندما حان وصول ابنيها من المدرسة؛ هرعت إلى بيتها لتراهما وتطمئن عليهما. وقفت بعيدًا تراقب البيت، وعندما نزل سلمان وأخته دلال أخذت تراقبهما ولم تنطق أو تتحرك من مكانها.. دخلت دلال البيت، ولكن سلمان وقف أمام الباب الخارجي وكأنه ينتظر شيئًا ما.. نادته أمه وهي تلوح بيديها.. هرع إليها مسرعًا كالبرق وكأن قدمه قد شفيت.. حضن أمه وهو يبكي..

- أين كنتِ؟ كيف حال عمك؟ أما زال مريضًا أم شفي؟ ولماذا ما زلتِ تبكين؟ هل حصل له مكروه؟ لا قدر الله.

- أبكي من الفرح يا بني.. النظر إليك يفرحني.. ولكن عن أي عمّ تتكلم؟

- أبي قال إنكِ ذهبت إلى عمك المريض.

- آه.. نعم ولكنه شفي..الحمد لله.

- ماما إني أعلم أن أبي يكذب.. أنتِ لم تتكلمي عن أي عمٍّ أو خالٍ طوال حياتك.. من أين أتى هذا العم؟ نزل من السماء؟

- دعك من كلام أبيك.. لماذا دخلت أختك مسرعه إلى البيت؟

- لتغير ملابسها.. صديقتها ستتناول طعام الغداء معنا.. هيا لنذهب إلى الداخل لترتاحي وتتناولي الغداء.

- أين أبوك؟

- هناك بعض التطورات العجيبة.. أبي سيتناول الغداء معنا.. هيا لندخل لأنك ستفاجئينه وستقفين ندًا له.

- لا يا بني.. أنا لا أستطيع الدخول.. هناك خلاف بيني وبين أبيك.. ولا أريد رؤيته الآن.. سأبقى في بيت سميرة لعدة أيام.. اسمع يا بني، أنت لست طفلاً بل رجلاً ما شاء الله عليك.. أريدك أن تهتم بأختك وسأحاول أن أراك ثانيةً عندما يذهب أبوك إلى عمله.

- ماما هذا البيت بيتك.. أنتِ تبقين وهو يخرج.. هيا تعالي، أنا سأقف بجانبك ولن يستطيع فعل شيء لك.. هيا لندخل البيت.

- لا يا بني.. والله إني أعلم أنك رجل ودومًا ستقف معي.. ولكن الآن أريدك أن تذهب إلى غرفتي وتأتيني بالصندوق الأزرق.. ستجده تحت السرير.. ولا تدع أيًّا كان أن يراه بيدك.. سأعود

مرة ثانيه عند الثالثة عصرًا لأخذ بعض الملابس والحاجيات الأخرى.. هيا اذهب بسرعة.

أخذت لطيفة صندوق مدخراتها وصيغتها ورجعت إلى بيت سميرة..

- أين كنتِ؟ أقلقتني عليكِ.. عندما عدتُ من المطبخ لم أجدك!.

- ذهبتُ لإحضار بعض من حاجياتي.. ورأيت بطلي وفلذة قلبي سلمان.. سأعود عند الساعة الثالثة لأخذ المزيد من الأغراض.

- لن تذهبي وحدكِ هذه المرة.. سأرافقك، وإن أردتِ نأخذ زوجي معنا.

- لا يمكنك المجيء معي.. أنا سأتدبر أموري.

بعد الغداء، عندما خرج صالح إلى عمله.. استأذن سلمان أخته وصديقتها وذهب ليجلس أمام الباب.. وعندما أحسَّ أن أمه لن تأتي.. ذهب إليها وطرق الباب.. فتحت سميرة وقالت مندهشة:

- ماذا أتى بك إلى هنا؟ ألا تعلم أن أمك لا تريد أن يعرف أحد أنها هنا.

- أين أمي؟

- هي بالداخل.. مسكينة لم تنم طوال ليلة البارحة.. لا أريد إيقاظها.. ويمكن إحضار حاجياتها في وقت آخر.

- هل أستطيع رؤيتها يا خالة سميرة؟.. من فضلك.. أريد فقط أن أقبِّلها وأتحدث إليها.

- بكل سرور يا سلمان.

دخل سلمان ورأى أمه تغط في نوم عميق.. اقترب منها ثم جلس على السرير وأخذ يتأمل في وجهها المتعب.. وقال في نفسه : يا لها من امرأة جميلة وعظيمة.. كيف يعاملها أبي بسوء.. إنها لا تستحق كل ذلك.

ثم أخذ يقول وكأنه يبرر لها خروجها : ولكن الحياة هكذا.. النار لا تشتعل مع الماء.. والطيبون والأشرار لا يلتقيان.. والشياطين لا يعيشون مع الملائكة.. وأهل السعير يمقتون أهل الفردوس.. وذلك الأب القبيح يمقتها لأنها أطيب وأجمل وأفضل منه...

ثم قبلها على جبينها وغادر وهو مطمئن عليها.

وفي اليوم التالي، أتت إلى البيت خلسة بمساعدة سلمان، وأخذت ما تستطيع أن تحمل يدها.. وتأكدت من إقفال الغرفة جيدًا حتى لا يعلم صالح بمقدمها.

طلب سلمان منها ومن سميرة أن يذهب معهما، ولو لبعض الوقت.. وهم في الطريق؛ ضمت سلمان إلى صدرها وقالت :

- استفقتُ يا بني.. استفقتُ من سباتي.. كنت أعيش وكأن شيء كان يغلفني ويحجب نظري.. لا أعرف ما هو ! ولكني على يقين أنه قد زال.. أبصرتُ الحياة من جديد.. هناك حتمًا حياة وراء أسوار بيتنا العالية.. هناك جمال لا نراه إلا إذا اكتسبنا الحرية.. اكتشفت خلال هذين اليومين أن الحرية لا تعطى ولا تطلب، بل تؤخذ غلابًا.. المغلوب عبد، والغالب حر.. ما أجمل الحرية يا بني ! زال الخوف وزال الهم.. ليلة البارحة نمت كما تنام الأجنة في بطون أمهاتهم.. زال ذلك القيد الذي كان يلف معصمي..زال يابني ذلك الشيء الذي كان يجثم على صدري.

- وما ذلك الشيء؟

- لا أعرف، ولكنه زال.. بدأت أفكِّر في شبابي الذي أهدرته مع أبيك ... في تلك الليلة عندما خرجت أمشي لوحدي ، كنتُ مرعوبة وخائفة.. وهُيئ إليَّ أن وحوشًا وأصواتًا تتبعني.. وبعد حين تأكدت أن الوحوش ليسوا بالشارع ، بل يقطنون البيوت.. كنت أسيرة؛ بل سجينة.. فقدتُ ثقتي بالناس وبنفسي حتى اعتقدت أني أسوأ الناس ، أو كذلك ما كان أبوك يوحى إلي.. لقد عدتُ يا بني.. عدتُ إلى تلك الفتاه لطيفة ، ابنة أبيها.. الشجاعة.. الحرة.. عاشقة الموسيقى والمرح.

قاطعتهم سميرة:

- أي والله.. صباح هذا اليوم كانت أمك تردد وراء أم كلثوم وهي تغني "حسيبك للزمن".

-يا بني أنا و لله الحمد عندي بعض المدخرات.. ومن الممكن أن أجد مكانًا مناسبًا لي.. مهما كلفني الأمر؛ لن أعود للعيش مع أبيك مرة أخرى.. لقد أهان كرامتي.. حتى لو بنى لي قصرًا من ذهب.. أُفضِّل العيش في خيمة أو تحت شجرة، ولا أن أكون سجينة في قصر من الألماس.

- ولكن ماذا عني وعن أختي؟

- أنا لا أخاف عليك يا بني.. أنت رجل ولا كل الرجال وتعرف كيف تداهن أباك.. وأختك ما شاء الله عليها سمن على عسل.. لا تظن قط إني لست بقلقة.. بل أنا أموت من الرعب.. خاصة عندما أتذكر إني لن أكون معكما تحت سقف واحد.. ولكني سأراكما من حين إلى آخر.

- عندي اقتراح يا ماما. لو أستأجرتِ شقة أو بيتًا؛ حتمًا أبي سيجدك.. أنتِ تعلمين نفوذه والكثير من أصدقائه يعملون في الشرطة والمباحث مثل العم زهير والعم شاكر.. أقترح أن تذهبي وتعيشي عند الخالة غنيمة، تعينيها وتعينك على الحياة.. وأنا سآتي كل جمعه لرؤيتكم، وإذا أردتِ كل يوم.

- اقتراح جيد.. ولكن دعني أفكر فيه.. أنا كنت أفكر بالذهاب إلى مكة والعيش هناك.. ولكن البعد عنكم صعب يا ولدي.
- ماما صدقيني.. الخالة غنيمة امرأة حكيمة وطيبة.. وأنتِ قلتِ أنكِ قد ترتاحين في خيمة ولا قصر من ذهب.. هناك ستكونين بأمان، وخاصة إنها تعرف كل سيئات أبي.. وإذا ندم أبي على فعلته وعاد إلى رشده.. تعودين أنتِ أيضًا إلى البيت مُعززة مُكرمة.
- دعني أفكر في الموضوع.. وقد أجرِّب الذهاب إلى هناك ليوم أو يومين وبعدها أقرر ما إذا كنت سأقيم مع الخالة غنيمة.

تدخلت سميرة وكأنها تؤيد كلام سلمان:

- ابنك على حق يا لطيفة .. زوجك شرير ولا تدرين ما قد يفعله بكِ عندما يجدك.. أنا متأكدة أن هذا المغرور يحس أنك أهنتِ كرامته.
- كأنك تريدين التخلص مني ولم يمضي علي إلا ليله واحدة في بيتك.
- لا يا لطيفة .. ولكن كلام سلمان الله يحفظه سديد ومقنع.

اقتنعت لطيفة وذهبت للإقامة مع الخالة غنيمة والتي رحبت بها لتعينها على وحدتها، لأن العم "أبو سرور" ما زال يتلقى العلاج في المستشفى.

## ( ١٤ )

التزم صالح مع ابنيه.. وكان يحضر يوميًا لتناول الغداء معهما.. وأيضًا لا يتأخر كثيرًا في المساء حتى يعوضهما ولو القليل مما فقداه من الحنان التي كانت لطيفة تغمرهما به.. وكان يتعجب كيف إنها مثل فص ملح وذاب.. لقد مرَّ من الوقت الكثير ولم تعد إلى بيتها.. لعل أحدهم رآها في تلك الليلة الظلماء وخطفها ! أو إنها حتمًا تكرهني واختلقت تلك القصة لتهرب من البيت.. هذا ما لم أتوقعه !.

وأخذ يسأل نفسه: هل أتزوج بشارين سميث واجعلها أُمًّا لهما ؟ لكنها صغيرة لتكون أمًّا صالحة، وقد تعلمهما بعضًا من طباعها التي لا تعجبني أحيانًا.. تربيتها تختلف عما تربى عليه ابنيّ وحتمًا سيكون هناك صدام.. وأنا أيضًا لا أستطيع أن أتحمل المزيد من المشاكل.

وفي ظهيرة أحد الأيام.. فاجأهما صالح؛ وهو الذي لم يعتد أن يرافقهما خارج البيت ولم يأخذهما حتى إلى حديقة البيت المجاورة لبيتهما..

- ما رأيكما أن نذهب إلى إحدى المسرحيات العربية والتي ستستضيفها الشركة على المسرح المفتوح هذا المساء؟

طارت دلال من الفرح وأخذت تصفق.

- شكرًا يا أبي.. إنها فكرة حلوة.. لنرفه عن أنفسنا قليلاً .

- ولماذا قليلاً ! بل قولي كثيرًا .

قاطعهم سلمان وبصوت هادئ خالٍ من الحماس:

- يجب أن أكون في البيت هذا المساء.. اليوم مباراة الدربي والكل سيشاهدها، إنها كما تعلم يا أبي مرتان في السنة فقط.

- يمكنك مشاهدة الإعادة.. هذه كرة قدم وجميع محطات التلفاز لا شغل لها إلا كرة القدم.. يا ولدي إنها لا تؤكِّل عيشًا ولا تغني من جوع.. دعك من الكرة واذهب مع أختك.

- ولكنها مباراة مهمة ويجب أن أشاهدها.

- وأنا قلت لا، يعني لا.. يجب أن تذهب معنا وترافق أختك.. لا تكن أنانيًا مثل أمك.. نحن عائلة ويجب أن نتصرف ونضحي من أجل بعضنا.

استغرب سلمان من أسلوب أبيه الجديد.. مع أنه لم يرتاح لسماع ذلك الكلام حيث وصف لطيفة بالأنانية.. وقال في نفسه : مسكينة أمي لا تسلم من لسانه حتى وهي بعيدة عنه.

عاد صالح في المساء وبيده كرتون مليء بالفطائر المحلاة وأعطاها إلى الخادمة وقال لها أن تعطي الأولاد منها وتأكل هي والسائق ما تبقى منه..

- وأيضًا أريدك أن تقولي لهم أن يجهزوا عند السادسة والنصف لأننا سنخرج سويًا.. يمكنك المجيء إذا أردتِ لتهتمي بدلال، فأنا لا أثق في ذلك الولد.

جلس الجميع في الأماكن المخصصة لهم في الصف الأول.. ولكن وبعد خمس دقائق من بداية العرض.. همس صالح في إذن سلمان:

- لا تذهب إلى أي مكان وتترك أختك وحدها.. أنا سأذهب إلى المكتب قليلاً، وحتى لو تأخرت لا تغادروا.. قفوا عند مدخل الساحة حيث يقف رجل الأمن.

ذهب صالح كالمعتاد إلى شقة شارين سميث.. وقبل حتى أن يجلس بادرته:

- والله قرف.. الحياة هنا مملة.. من البيت إلى العمل.. ومن العمل إلى البيت. اعتقدتُ أن الحياة هنا ستكون ممتعة.. في العمل لا تسمع إلا التفاهات من هؤلاء المتخلفين، وعندما اشتاق وأعود إلى بيتي لا أجد شيئًا افعله.

كانت تقول هذا وهي ممددة علي ظهرها وكلتا يديها خلف رأسها وهي تنظر إلى السقف.

- لماذا كل هذا التذمر ؟ كل شيء مُهيأ لكِ.. ولكنكِ تفضلين المكوث هنا.

- سأطلب منك طلبًا بسيطًا.. في المرة القادمة أريدك أن تأخذني إلى المكتبة.. أريد شراء بعض الروايات والشعر.. كم أشتاق إلى القراءة.

قام صالح من الكرسي وجلس بالقرب منها على السرير.. وأخذ يدغدغ بواطن قدمها علها تبتسم..

- لا تلمس قدمي ! أنا لست في مزاج للمداعبة.. تمنيت لو قيثاري معي ليؤنس وحدتي.

- لم أعلم أنك تعزفين على القيثارة.. وإذا كانت القيثارة هي مؤنسك.. سأشتري لك واحدة.

- شكرًا يا صالح.. لا أعرف ما أفعل بدونك.

أحس صالح بالنشوة وهو يسمعها تشكره.. وأحس أنه هو من يديرها وأنها لا تستغنى عنه..

- على الرحب والسعة.. أنتِ تدللي واطلبي ما تريدين.. يا أحلى قطه رأيتها.

- القطة ! سمعت أن هناك مسرحية في الهواء الطلق.. هل يمكننا الذهاب ؟

- طبعًا لا.. لأن الكل سيشاهدنا سويًا.. وأيضًا أطفالي هناك.

- إنه حظي التعيس.. دائمًا أنا من يُقال له لا.

- هيا لا تقلبيها مناحة.. إنها مسرحية أطفال.

وبعد سويعات؛ قفز صالح من مكانه:

- يا الله الساعة الآن التاسعة والنصف.. والعرض ينتهي عند التاسعة.. يجب أن أذهب الآن.. مساكين لعلهم الآن قلقين ويتضورون جوعًا.

- لا أستطيع القيام من مكاني.. أطفئ النور وأنت خارج.

ذهب صالح مسرعًا بسيارته إلى المسرح المفتوح ورآهم جالسين متراصين على الرصيف.. نزل وهو ينهر سلمان:

- قلت لك أن تجلس حيث يقف رجل الأمن.

- هو من طردنا.. وقال إنه غير مسموح الجلوس هناك بعد التاسعة.

- لعنة الله عليه.. هل قلت له إن أباك هو صالح المبهور ؟

- نعم قلت يا بابا.

- وماذا قال ؟

- لا أريد أن أخبرك ! هيا لنذهب إلى البيت.

- ماذا قال لك ؟ هيا تكلم.

- قال.. واللعنة عليك وعليه.

- طيب.. أنا من سأريه يوم غد كيف تكون اللعنة.

في اليوم الثاني قرَّر صالح أن يذهب إلى محطة الشرطة حيث يعمل أحد أصدقائه ليقدم بلاغ عن مفقود، حتى يبرئ ذمته في حال أصاب لطيفة أي مكروه.

- السلام عليكم يا أبا علي.. أو تريدني أن أقول حضرة الرائد حسن.

- وعليك السلام.. من أين أتيت ؟ هل انشقت الأرض وخرجت من قبرك.. أين أنت يا رجل ؟ معتكف في بيتك.

- كنت في الطريق وقررت أن أعرج عليكم وأطمئن على أحوالكم.

- تفضل لنشرب بعض الشاي أو القهوة.

- لا أنا على عجلة من أمري.. توقفت عند مكتبك فقط للسلام على سيادتكم حضرة الرائد.

لم يستطع صالح قول أي شيء.. ماذا يجب عليه أن يقول ؟ "ضربت امرأتي وهربت مثلاً".. خرج صالح من مركز

الشرطة وأخذ يهيم بسيارته بين الحواري والأسواق علَّه يراها في مكان ما.. ثم ذهب إلى الكورنيش وأخذ يحدِّق في الماء وكأنها ستشق الماء وتخرج إليه.. بدأ صالح يكره نفسه ويكرهها هي أيضًا .. كان خائفًا أن يحصل لها مكروه ويُتهم هو لكل ما قد يحدث لها.. ثم قال سأصبر يومًا أو يومين قبل أن أتقدم ببلاغ.. لعلها تعود إلى البيت.

بعدها بيومين، وبينما كان يَهُم للذهاب إلى مركز الشرطة.. اتصلت به سميرة وأخبرته مكان لطيفة، وأصرَّت عليه أن لا يخبرها.. بل يقول إنه فاعل خير.

## ( ١٥ )

في يوم جمعه وكعادته.. ذهب سلمان إلى السوق واشترى بعض الحاجيات التي قد تحتاجها أمه.. ثم توجه إلى البحر حيث تقيم.. اقترب من الخيمة وسمعهما وهما غارقتان بالضحك .. ظلَّ صامتًا حتى لا يقطع ضحكات أمه.. هذه هي المرة الأولى في حياته التي يسمعها تضحك ببهجة وسرور ؛ وكأنها ولدت من جديد.. وقال سبحان الله.. رب ضارة نافعة.

وأخيرًا دخل عليهما وهو يضحك:

- سمعت ضحكاتكما وأنا في البيت.. فقررت المجيء لأشارككما هذه الفرحة.

وقفت أمه وتوجهت إليه وضمته إلى صدرها.

- أين السائق؟

- جعلته ينزلني عند البحر وطلبت منه أن يذهب .. وأكملت المشوار إليكم ماشيًا حتى لا يراكِ ويخبر أبي.. أنتِ تعلمين أنه لا يترك شاردة أو واردة إلا ويخبر بها أبي.

- طيب تعال واسمع المشاريع التي نناقشها.. سأكون أنا والخالة غنيمة من نساء الأعمال عما قريب.

- ما شاء الله.. نساء أعمال مرة واحدة.

أعطته الخالة غنيمة فنجانًا من القهوة ووضعت أمامه صحن التمر..

- هيا كلْ وغذي نفسك.. لقد فقدتَ الكثير من الوزن.

أخذ يرشف فناجين القهوة الواحد تلو الآخر ويتفكر بأمه ويصفها بينه وبين نفسه ويقول: كأنها اسمَّرت قليلاً، ولكن هذا اللون يناسبها وأفضل بكثير من ذلك البياض المزيف من جلسة البيت وعدم التعرض للشمس.. لقد ازدادت روعةً وجمالاً.. ما أرقها وما أزين طبعها وهي تضحك.. هل أقول لها ما أشعر به؟ هل أقول لها إنها ازدادت جمالاً ؟ وهل قاموسي اللغوي سيسعفني لوصف مشاعري نحوها أم سيخونني كالعادة؟ لا لن أقول شيئًا، أمي لا تحب المديح.. فقط سأدعها بعفويتها ولن أفسد يومها.

- نعم يا ماما.. أخبريني عن المشاريع التي تتحدثان عنها.

- مشاريع على قدنا.. أنت تعرف أن "أبو سرور" ما زال في المستشفى والخالة غنيمة تزوره كل صباح مع السائق البنغالي.. وباقي اليوم لا شغل لنا.

- طيب.. مثل ماذا؟

- أحدهم.. أن نشتري بعض الماشية من البدو.. نربي بعضها ونبيع البعض في سوق المدينة أو على المتنزهين وموظفي مركز السواحل.

- ولكن أين لكما بالمال؟ الخراف غالية الثمن الآن، أبي يقول إن سعر الكيلو وصل إلى أربعين درهمًا.

- ها أنت قلتها.. نحن سنشتريها من البدو الذين يرعون حلالهم بالقرب منا.. الخراف هنا رخيصة ولا تتعدى الستمائة درهم للرأس.. وبينما هي بالسوق تتعدى الألف درهم.

- ومن أين ستأتيان بالمال؟

- سأبيع بعضًا من صيغتي كأساور الذهب والقلادات وبعض من الثياب الفاخرة التي لم ألبسها إلا مرة واحدة.. أنا لا أحتاجها بعد اليوم.

- ومن سيهتم بنقلها وبيعها وإطعامها.. أقصد الخراف والماعز.

- لقد فكرنا بالأمر مليًا.. الخالة غنيمة عندها عامل على كفالتها.. وكذلك السائق البنغالي يريد العمل معنا أيضًا .

- ما شاء الله حسبتما لكل شيء حساب.. ومتى ستبدأان؟

- حالاً يا بني .. سأذهب يوم غد إلى السوق لبيع صيغتي وسأعطي المال لـ"أبو محمود" صديق العم "أبو سرور" وهو من سيتكفل بالشراء من البدو.. انظر هناك ! أنظر إلى تلك الأرض المسورة بالشبك.. هناك سنضع خرافنا وماعزنا.

- ماما.. أراكِ مرتاحة هنا.

- ونعم الرأي رأيك.. أنت من أشار علي بهذا.. كان رأيًا سديدًا.. اليوم هنا مع الخالة غنيمة يمضي بسرعة.. تخبرني كل تلك القصص التي مرَّت عليها، وكذلك تلقي علي الأشعار التراثية الجميلة والحِكم الأصيلة.. إنها ما شاء الله مدرسة في الحياة.. تعلمتُ منها خلال هذه الأيام ما لم أتعلمه طيلة حياتي.. ما أجمل الحياة البسيطة البعيدة عن التكلف، والبعد عن القيل والقال والجشع والرياء.. هناك في البلد تذهب الواحدة منا إلى السوق وتشتري بأغلى الأثمان لتقول للناس إنه ذوقي؛ وكأنها صنعته أو صممته.. ولكن هنا كل شيء له قيمة.. لا هدر ولا تبذير.

- الحمد لله أنكِ مرتاحة وفي أيدٍ أمينة.. هل فكرتِ بالعودة إلى البيت؟

- ألم تسمعني يا سلمان ! أنا مرتاحة هنا.. لقد وجدت نفسي.. وهل رأيتَ طيرًا يعود إلى قفصه ؟ عمرك سمعت أن هناك سجينًا أحبَّ سجَّانه.. الحرية يا بني لا تُشترى بالمال.. الحرية كالفرس الأصيلة إن ركبتها لا تنزل منها أبدًا ولن تقبل بغيرها بديلاً.. أنا لست نادمة يا ولدي على عيشي مع أبيك لشيئين.. أولهما: أني أنجبتك وأختك.. وثانيهما: أنه علمني معنى السجن لأعرف معنى الحرية.. من لم يجرب السجن لا يعرف للحرية

معنى.. وأيضًا هناك من يجرب الحرية ولكنه يحن إلى السجن ويعود إليه، وهذا ليس أنا.. وأتمنى ألا تكون أنت كذلك أيضًا .

- تغيرتِ يا ماما ! حتى أسلوب كلامك تغير .. أصبحتِ إنسانًا آخر، وهذا ما يبدو لي الآن.

- نعم يا بني الذي لا يتغير يجب أن يُقدم له علف ليرعى مع الغنم.. الحياة تجارب، ولكن الأهم هو أن نتعلم من تجاربنا.. ولكن أريد أن أطمأنك.. كل شيء قد يتغير في حياتي إلا حبك يا بني.. بل يزداد يومًا عن يوم.

مرَّ الوقت على سلمان كسرعة البرق، وعاد إلى البيت وهو مطمئنٌ على أمه.

لقد مرَّ على غياب لطيفة عن البيت أشهر .. ولكنها صمدت وصبرت وكافحت حتى أصبح دخلها من بيع الخراف والنعاج يفوق ما تصورته.. بل أصبح الكثير من الناس يأتون إليها من مسافات طويلة لشراء اللحوم منها.. وعُرفت بالسوق بلقب "أم الحلال".. كانت تعتز بهذا اللقب لأنها اكتسبته بجدها وصدقها مع عمالها وزبائنها وصار علامتها التجارية..

## ( ١٦ )

مرَّت عدة أشهر منذ أن خرجت لطيفة من البيت.. لم يتغير صالح البتة.. بل واصل حياته وكأن شيئًا لم يكن.. لم يذكرها أو يذكر الحياة التي عاشها معها.. بالنسبة إليه كانت لا شيء، بل متاعًا يذهب ويستبدل مكانه بشيء آخر.. آثر الدروب الزلقة والمتع الزائفة.. آثر الحرام على الحلال.. آثر الشهوات الوقتية ونسي العفة الأبدية.. أدمن عمله ونسي بيته.. عشق المال وأهمل الحال.

ذات صباح، وعندما كان خارجًا من اجتماع عمل.. وجد شارين واقفة بانتظاره.

- نعم.. ماذا أتى بكِ إلى هنا ؟ كيف تتركين المكتب وتأتين إلى هنا ؟

- إنه أمر مهم يا سيدي ! لقد أتى رجل من دائرة التدقيق وقال إنه يريدك لأمر ضروري.

- هذا كل ما عندكِ ؟!

- نعم سيدي.

- وماذا كان يريد ؟

- يريدك أن تتصل حالاً.. قال إنه أمر ضروري.. ولكنه يبدو إنسانًا لطيفًا.

- ما دعاكِ لقول هذا؟

- لقد أخذ يتودد إلي.. ويقول إنك محظوظ لأني أعمل معك.

- دعكِ منه الآن.. هيا لنذهب إلى المكتب، أحمل أخبارًا جيدة لكِ.

عندما وصلوا المكتب.. طلب منها أن تأتيه بفنجان قهوة وبعض الفطائر، لأنه لم يتناول وجبة الإفطار.

- شكرًا يا عزيزتي.. أراكِ في مزاج جيد، وهذا ما تحتاجينه لتسمعي الأخبار الجيدة.

- هيا تكلم.. شوقتني لأسمع ذلك الخبر الجيد.

فتح درج المكتب وأخرج ورقة زرقاء وقال لها:

- خذي هذه.. اقرأيها جيدًا .

- شكرًا يا صالح.. لقد ترسمت.

- نعم ترسمتِ وأصبحتِ موظفة بجميع المزايا .. يمكنك الاطمئنان الآن على مستقبلك.. لن يستطيع كائنٌ من كان أن يفصلك أو يسيء إليكِ .. إلا طبعًا إذا ارتكبتِ مخالفة كبرى.. كالرشوة مثلاً.

رنَّ جرس الهاتف، ذهبت شارين إلى مكتبها لتجيب لكنه قاطعها:

- أنا سأجيب عليه.. اذهبي أنتِ إلى مكتبك واحتفلي.

- ألو.. معك صالح المبهور.. كيف أخدمك؟

- معك عصام الشفقان من إدارة التدقيق.. لقد أتيتُ إلى مكتبك ولم أجدك.. ما شاء الله عندك سكرتيرة محترمة.. من أين حصلتَ عليها؟

- هل تتصل لتسألني عن سكرتيرتي؟

- لا أبدًا، فقط أحببتُ أن أهنئك بها.

- هيا قل ما تريد.

- أريد فقط أن أخبرك عن موعد لك مع لجنة التدقيق بعد يومين.

- خيرًا إن شاء الله.. لماذا أنا؟.. إذا كانت المشكلة مع أحد الموظفين؛ يمكنك المجيء إلى مكتبي وأنا سأدعوه إلى مكتبي ويمكنك التدقيق معه.

- الأمر يخصك أنت .. لا تقلق.. هذا أمر روتيني.

بعد يومين ذهب صالح إلى حيث الاجتماع مع لجنة التدقيق وهو يقول في نفسه : أن هذا أمر روتيني وخاصة عندما يترقى الموظف إلى أعلى المناصب.. حتمًا سيسألونني أن أوقِّع لهم على إبراء ذمة، أو عن مجموع المداخيل السنوية الخاصة بي.

عندما دخل إلى مقر الاجتماع.. أخذت عيناه تستكشف القاعة.. وكانت خالية كأنها مهجورة.. كان ذلك الهدوء الغريب مزعجًا لصالح واعتقد أنها مكيدة.. تراءت له بعض الخيالات وكأن اللجنة مكونه من الأشباح.. وعندما همَّ بالمغادرة.. أرعبه ذلك الصوت:

- تفضل يا صالح!
- أسف، لم أرك في الداخل.
- أعلم.. أعلم أني قصير.. ماذا أفعل، إنها خلقة الله.
- أين اللجنة؟
- أنا اللجنة.. تفضل استرح.
- أنت اللجنة!! هل هي دعابة؟ أنا ذاهب الآن، وعندما تأتي اللجنة.. اتصلوا على مكتبي.
- قلت لك أنا اللجنة.. تفضل استرح.. ما هي إلا بعض الأسئلة الإجرائية.

جلس صالح أمام ذلك الرجل الذي لم يعرف على نفسه، ولم يقف ليحيه كما أعتاد أن يفعل موظفوه.. وأحس أنه قد أُهين.. كيف يعاملون المدير التنفيذي بهذه الطريقة المشينة ويكذبون عليه بشأن اللجنة.. ولا يوجد إلا رجل قزم ذو عيون جاحظة.. ويدعي أنه لجنة.

- تفضل.. خذ هذه المستندات.. أريدك أن تقرأها جيدًا .. هذه مجرد إجراءات نقوم بها عندما يصلنا شيء مريب.. خذ كل الوقت الذي تريده.. أنا هنا طوال اليوم لأجيب على أسئلتك.

لم يرق هذا الكلام لصالح.. وأخذ يتصفح المستندات التي أمامه؛ متجاهلاً ذلك الرجل الذي مقته من أول نظرة.. أطال صالح النظر إلى المستندات وتفكّر من أين أتت وهو الذي تخلص منها منذ سنين؟!.. ثم صرخ في وجه المدقق:

- هذا هراء.. هذا كذب وتلفيق.. هل هناك أحد يتقصدني.. إنها حقًا مكيدة من سافل يريد إسقاطي.. كيف تفعلون هذا بي؟ وأنا من أفنى حياته وترك بيته لخدمة هذه الشركة.

- إن ما تقرأه في هذه المستندات أمرٌ خطير.. لقد دققنا فيها ووجدناها أصلية وموثقة.. كما قمنا بمراجعة جميع الكشوف، وتبين لنا صدق المعلومات التي وصلتنا.

- وصلتكم! من أوصلها لكم؟.. إنها كيدية.. إنها من حُسَّاد.. لماذا لم تقولوا شيئًا في وقتها؟.. كل هذه المعلومات والمستندات قديمة.. حتى أني لا أذكر منها شيئًا .. هيا انظر إلى هذا التوقيع.. أنا لست متأكدًا أنه توقيعي، ويمكنك مراجعة جميع معاملات الشركة التي وقَعتُ عليها وقارنها بهذا التوقيع.

- أنا لستُ هنا لأدينك.. ستحتفظ أنت بهذه المستندات ولك مهلة أسبوع للإجابة عليها.. ولكن دعني ألخص لك ما تحتويه..

أولاً : جميع عمليات الصيانة في بيتك الخاص قام بها أحد المقاولين المعتمدين لدينا، وهذا مخالف لقوانين الشركة..

ثانيًا : هناك بعض من الأثاث وأجهزة التكييف التي طلبتها أنت ولم تدخل إلى مستودعات الشركة..

ثالثًا : هناك الكثير من تضارب المصالح مع مؤسسات خاصة بك كما هو موثق في هذه المستندات..

- قلتُ لك إنها كيدية.. هناك من يعمل على الإضرار بي وبسمعتي.. إن جميع أعمال الصيانة في بيتي أدفعها نقدًا أو بشيكات مصدقة.

- أنا لا أريدك أن تجبني الآن.. لقد راجعتُ المستندات وكتبتُ تقريري.. ما عليك الآن هو أيضًا مراجعتها والإجابة عليها. تقريري وإجاباتك والمستندات التي سترفقها ستحول إلى لجنة خاصة.. وهم من سيقرر.

أخذتْ الحيرة صالح مما يسمعه من ذلك الرجل.. وضع يده على رأسه وأخذ يتفكر في هذا الأمر الجلل والمصيبة غير المتوقعة.. وفجأة وفي خضم سرحانه.. انتبه أن الصالة خالية.. اختفى ذلك

الرجل من غير أن يتفوه بكلمة .. أشاح بوجهه نحو الباب فرآه مغلقًا.. عمَّ الهدوء المكان.. طأطأ رأسه وضغط عليه بكلتا يديه.. ثم أغمض عينيه وكأنه يريد أن يفتحها وقد زال الكابوس.

obeikandl.com

# ( ١٧ )

غياب صالح من البيت لساعات طويلة، وأحيانًا طوال اليوم.. وكذلك خروج لطيفة .. أعطى الأولاد المراهقين مساحة أكبر من الحرية.. صار سلمان يقضي جُلَّ وقته مع أصحابه.. ودلال كذلك أيضًا ..

في أحد الأيام استعار سلمان سيارة صاحبه الثري ليتجول في المدينة.. وما هي إلا سويعات حتى صدم شجرة على قارعة الطريق.. كان حظه جيدًا، حيث أن رجل الأمن الذي اقتاده إلى المخفر كان من معارف أبية القدماء.. ومن كثرة توسلات سلمان وبكائه المستمر؛ تستر عليه رجل الأمن وأوصله إلى بيته.

دلال لا تكثر الخروج من البيت.. ولكن تقضي كل وقتها على التلفون بدون حسيب أو رقيب.. تقفله فقط عندما يدخل سلمان أو أبيها البيت، وتتظاهر أنها عاكفة على دروسها.. التقويم الشهري المدرسي لكل من سلمان ودلال كانا سيئين للغاية.. انخفضت درجاتهما بشكل مرعب .. وكانا يزّوران توقيع أمهما على الوثائق حتى لا يرى صالح التقارير المدرسية.. لم يأبه صالح أو يسألهما عن تحصيلهما العلمي.. كان من يقوم بهذا أمهما.

الخادمة تفرغت لخدمة السائق وقضاء وقتهما وكأنهما زوجين متحابين.. تقوم بعمل البيت فقط عندما يكون صالح في البيت.. أما سلمان ودلال فكانا غالبًا ما يأكلان خارج البيت.

عندما عاد صالح إلى البيت في ساعة متأخرة وهو في أوج حيرته وغضبه.. رأى أحد الشباب وهو يخرج من البيت.. فصرخ به.. ولكن ذاك الفتى وجَّه رجليه إلى الريح واختفى في الظلام.. استشاط غضبًا على غضبه.. دخل وهو ينادي، وإذا بابنته دلال تتحدث على التلفون.

- ماذا تفعلين؟ لماذا أنت مستيقظة؟

- لم أستطع النوم.. عندي بعض الصداع.

- ومن ذلك الشاب الذي للتو قد خرج من البيت؟

- شاب !! لا علم لي.. قد يكون من أصدقاء سلمان.. ربما أتى إلى هنا ولم يجده.. قد تكون الخادمة قد أخبرته أن سلمانًا سيأتي متأخرًا.

- وأين سلمان؟

- لا أعلم.. قد يكون مع أصدقائه يدرسون.

- وأين الخادمة؟

- وضعت العشاء على الطاولة، وذهبت تكوي الملابس في غرفة القبو.

أمضى صالح ليلته وهو يبحث في أوراقة ويزِّيف بعضها ليقدمها إلى اللجنة المسئولة بالتحقيق معه.. ويسأل نفسه: يا ترى من فعل ذلك بي؟ جميع ما قد ذُكر في الاجتماع مرَّ عليه سنون عديدة.. وجميع الوثائق تتلف تلقائيًا بعد مضي خمس سنوات عليها.. من احتفظ بها طوال هذه السنين كان يعد العدة لإيذائي.

في اليوم التالي، وبينما كان يتناول قهوته في مكتبة.. دخلت عليه شارين وهي تبتسم بابتسامة مشرقه، قائلة:

- هل تعدني أن تأخذني معك أينما ذهبت.

- ما تقصدين بذلك؟

- بالأمس بشرتني بخبر ترسمي في الشركة.. وها أنا ذا أبشرك بأنك ستكون نائبًا للرئيس عما قريب.

- كيف؟ ماذا تقولين؟

- أنت أخر من يعلم.. كل الشركة تتحدث عن ذلك.. حتى عمال النظافة.

- وكيف علمتِ أنتِ؟

- سمعتها من سكرتيرة رئيس الشركة.

- هيا تكلمي، ماذا سمعتِ؟

- قالت إنهم يبحثون عن نائب للشئون العامة.. وأنها سمعت اسمك يُتداول مع أحدهم على التلفون.
- وهل قالت إن هناك أوراق، قرارات عن هذا الموضوع.
- لا فقط سمعتْ اسمك يتداول مع أحدهم.
- ولكن بالأمس كانوا يحققون معي على أمور مضى عليها سنين عدة.. وكأنهم يريدون إيذائي، لا ترقيتي.
- ماذا؟ يحققون معك؟! عجيب هذا الأمر.. علَّهم يريدون اختبار ردة فعلك.
- لا أعلم يا شارين.. ولكن دعينا لا نتكلم بهذا الموضوع، إنه يزعجني كثيرًا .. ماذا ستفعلين الليلة؟
- مرتبطة بموعد مسبق.. لنلتقي ليلة ما بعد غد.

أمضى صالح المساء في بيته.. لا يتكلم إلا قليلاً .. حيث كان يقلب في أوراقه القديمة ويرتبها في ملف ويدون الملاحظات.. يتصل حينًا بالمقاولين اللذين عملوا في بيته وحينًا بممثلي الشركات التي تعامل معها.

دخل مكتبة في اليوم التالي متأخرًا ساعتين وهو في حالة شديدة من القلق.. ضغط على زر المناداة ولم يجبه أحد .. ذهب إلى مكتب شارين سميث ولم يجدها، وكان كمبيوترها مغلقًا.. سأل

عنها وقيل له إنها لم تحضر هذا الصباح.. اتصل على غرفتها ولا من مجيب.. أزداد قلقًا على قلقه.

وعند الساعة العاشرة أتاه اتصال من مخفر الشرطة.

- هل أنت السيد صالح المبهور؟.. هناك سيدة في توقيف النساء تُدعى شارين سميث تريد التحدث معك. من تكون بالنسبة لها؟

- نعم.. مخفر الشرطة ! ماذا فعلت ؟ أنا فقط رئيسها في العمل.. سآتي بالحال مع مسئول العلاقات الحكومية، قل لها أن تنتظر.

ذهب صالح مع مسئول العلاقات الحكومية.. وفيما هو في الطريق اتصل بصديقه الرائد "أبو علي".

- السلام عليكم حضرة الرائد.

- وعليكم السلام أيها الغريب.. أين أنت ؟

- أتصل بك لأمر ضروري.. إحدى موظفات الشركة موقوفة لديكم واسمها شارين سميث.. ماذا فعلت تلك السيدة؟

- حتى الآن لم تفعل شيئًا .. موقوفة حتى نكمل التحقيقات، وطبعًا الإجراءات القانونية.

- ماذا فعلت؟ ولماذا هي هناك في التوقيف؟

- لقد كنا نراقب أحد البيوت المشبوهة بترويج الخمور.. وعند مداهمة البيت قبضنا على البعض، وهرب البعض.. أما هي

فوجدناها في مواقف السيارات.. لا نعرف قد تكون من أحد زبائنهم أو شريكه لهم.

- هل يمكنني رؤيتها ؟ في الواقع هي تعمل معي وتسكن في سكن الشركة.. ولا أذكر أنها تغيبت يومًا، وكانت تقضي كل وقتها في الدوام.

- بكل صراحة يا أخ صالح.. لم نجد شيئًا يدينها، ولم تكن من المطلوبين في هذه القضية.. ولكنها إجراءات احترازية.. يمكنك كفالتها على أن تأتينا بجواز سفرها وتتعهد أن تأتي بها عندما نستدعيها.

- معي المسئول والمفوض عن العلاقات الحكومية.. الشركة هي من سيكفلها حتى انتهاء التحقيقات.

- ممتاز.. تعال معه وخذها.

أخذها صالح من المخفر وهي تبكي وتتأسف.. لكن صالح ظلَّ صامتًا لا يتحدث إليها.. وكان الغضب ظاهرًا عليه.. ولعله لا يريد أن يعرف مسئول العلاقات عن العلاقة الحميمة التي تربطه بها..

وعندما ذهبا إلى المكتب.. أخذها إلى مكتبه وبدون أي مقدمات أو تطمينات.. صار هو نفسه محققًا.

- ماذا كنت تفعلينِ هناك ؟ في ذلك الوكر السيئ.. اعتقدتُ أنكِ أفضل مما أنتِ حقًا عليه.. للأسف غُششتُ فيكِ.. كلكم هكذا.

- أرجوك اسمعني جيدًا .. لا تُسيء فهمي.. كل ما حصل كان حادثًا.. التقيتُ بأحد الرجال من بني جلدتي في مجمع التسوق، وقال إنهم سيحتفلون بالعيد الوطني لأيرلندا.. ودعاني لأذهب معه.. لا أعرف ذلك الرجل ولا علاقة لي به.

- وهل كل من يسألك في الطريق تذهبين معه؟.. أنتِ حقًا سيئة.. لقد أهنتِ كرامتي وقللتِ من شأني.. هيا اذهبي إلى مكتبكِ ولا تدخلي إلى هنا إلا عندما أطلبكِ.. هيا اذهبي .

- أرجوك أسمعني، أنا لم أدخل إلى ذلك المكان، كنت في مواقف السيارات عندما داهمتهم الشرطة.. عندما سألوني عن أسمائهم قلت لا أعرف .. حتى هم لم يعرفوا اسمي ولماذا أنا هناك.

- قلت لكِ اذهبي إلى مكتبك.. لا أريد أن أسمع المزيد من الكذب.

توترت العلاقات بين صالح وشارين سميث عند أول اختبار.. كانت تتودد إليه كل يوم، ولكنه ظلَّ متمسكًا بعناده.. كيف لا وهو يعتقد أن كرامته قد مُسَّت.. وربما لأنه كان مشغولاً بقضية التدقيق وكتابة رده على مسودة الاتهامات.

# ( ١٨ )

ذهبت الخالة غنيمة ولطيفة في عصر يوم جمعة إلى المستشفى لزيارة العم "أبو سرور" .. كانت لطيفة تضحك وهي تشاهد الخالة غنيمة وهي تركب المصعد المتهالك.. كانت دائمًا تفضل الصعود على الدرج من خوفها أن يسقط المصعد أو يتعطل بها.. كانت تمسك بكلتا يديها على المقابض الجانبية، وتعاتب لطيفة لأنها أجبرتها على استخدام المصعد. وعندما وصلوا إلى الطابق الثالث.. قالت لطيفة :

- هيا يا خالة لقد وصلنا.

- لقد استغرق طويلاً ليصل.. أنا كلما أتيتُ أستخدم الدرج.. هذه المصاعد هي سبب الأمراض.. لو صعدنا من الدرج لكان ذلك أفيد لقلوبنا وصحتنا.. ولكنك دائمًا عنيدة ولا تقبلين إلا برأيك. أين الغرفة ٣٣٣ ؟ كل الأبواب تتشابه علي.

- تعالي من هنا.. غرفته في أخر الممر.

دخلا وترامس القهوة والشاي بيدهما.. كل السواتر المخصصة لكل سرير مغلقه إلا ستارة "أبو سرور".. نظروا إلى السرير وكان فارغًا إلا من القرآن وسبحته الذين كانا على الرف فوق السرير.. اندهشت الخالة غنيمة وهمست في أذن لطيفة :

- مسكين أبو سرور.. لأنه من عامة الناس يأخذونه من غرفة إلى أخرى.. لو كان ذو مال أو عنده واسطة لوضعوه في غرفة خاصة.
- يمكن أخذوه لعمل التحاليل أو التصوير الإشعاعي.. هيا لنذهب ونسأل الاستعلامات عنه.

أجابهم الرجل الذي كان بجانبه منذ أسبوعين:

- ادعوا له بالرحمة واستغفروا له.
- ماذا تقصد يا سيد؟
- لقد توفاه الله هذا الصباح، وكان ابنه معه، وأخذ يوصيه بابنته غنيمة.. إنه يحب ابنته كثيرًا.
- بل يحب زوجته.. ولكن أين هو الآن؟
- أنزلوه إلى القبو حيث الثلاجات.

بكت الخالة غنيمة بصوت مرتفع وأخذت تضرب على صدرها ورأسها وهي تنوح من هول الفاجعة. جلست على الأرض ولطيفة بجانبها تواسيها وتقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.. أتقي الله يا خالة، وادعو له بالرحمة والمغفرة.

ذهبت لطيفة مسرعة نحو الاستقبال ليأتوا لها بكرسي متحرك وبعض المساعدة.. هرعت بعض من الممرضات إلى الغرفة،

وعندما وصلن؛ كانت غنيمة في غيبوبة.. بعد عمل الإسعافات الأولية من قبل الطبيب المناوب.. استفاقت.. سألها إن كانت على ما يرام.. قالت بكل حزم:

- خذني إليه.

حاول الجميع تهدئتها وأن تسترح قليلاً.. أصرت وأخذت تكرر:

- ألا تسمعون! هل أنتم طرش؟ قلت خذوني إليه أينما كان.

عندما ذهبوا إلى هناك كان سرور جالسًا على أحد الكراسي ورأسه إلى الأرض يتمتم بعض الأدعية.. عندما رأى الخالة غنيمة؛ هرع إليها يقبِّل رأسها ويبكي معها.. حضنته إلى صدرها وظلت صامتة بلا حراك.. ثم همست:

- أين أبوك؟

- في الثلاجة.

- أريد رؤيته.

- لا يا خالة.. لم نغسله بعد.. يمكن أن ترينه غدًا في المسجد بعد الغسيل.

- ألا تسمعني يا سرور! أريد رؤيته الآن.

جاء الحانوتي وسحب أحد أدراج الثلاجة وقال: ها هو المرحوم هنا.

تقدمت الخالة غنيمة نحو الجثمان.. ثم طلبت منهم أن تكون وحدها مع جثمان زوجها.. أخذت تتمعن فيه وتمسح على وجهه وجبينه وتتساءل : لِمَ هو بارد هكذا.. لماذا لا يكرمونه بالدفن ؟! ثم أخذت تتحدث إليه : كنت يا أبا سرور ؛ وستظل ؛ من أعز الناس وأقربهم إلى قلبي.. ستكون معي دومًا كما كنتَ وأنت حيٌّ ترزق.. أنت السابق وأنا اللاحقة.. أحببتك في الله من كل قلبي.. عشنا سويًا في خيمتنا على الحلوة والمرة.. تحملتني وتحملتَ عيوبي وطول لساني.. سامحني إن أخطأتُ يومًا في حقك.. زوجي أبو سرور، أعلم أني مثقلة بالعيوب.. ولكنك تحملتني. سأدعو لك ليل نهار.. انتظرني، أنا قادمة إليك بإذن الواحد الأحد عما قريب.. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ثم قبلته.. وعادت حيث يجلس سرور.. رأته مكسور الفؤاد حزينًا.. ربتت على كتفه وقالت له: (لا تحزن يا بني فأبوك من أهل الجنة بإذن الله.. انظر إليَّ وامسح الدمع من عينك.. أبوك عاش سعيدًا ومات سعيدًا.. هنيئًا له... ثم سألته:

- متى الصلاة عليه؟

- غدًا مع صلاة الظهر.. لم أستطع إخراج إذن الدفن قبل العصر.. لم أرد أن أبقيه في الثلاجة، ولكن الإجراءات أخذت

مني الكثير من الوقت. سأتصل بكل الجماعة عندما نخرج من هنا.. هيا لنذهب إلى بيتي.. ستبيتين عندنا.

بعد الصلاة على أبو سرور.. ذهبت الخالة غنيمة ولطيفة إلى حيث يقيمون عند ساحل البحر.. وهناك قضت كل أيام العدة.. سهرت لطيفة على راحتها ولم تجعل لها حاجة إلا قضتها.

توطدت علاقتهما لتكون مثل البنت وأمها.. لا تفترقان.. وكل منهما ترعى وتهتم بالأخرى.. كانت لطيفة تحتاج أمًّا، فوجدت ضالتها عند الخالة غنيمة.. وكانت غنيمة ترجو من الله بنتًا، فوجدت ضالتها عند لطيفة .. كل منهما أكملت الأخرى؛ وكأنهما خلقتا لبعض.. أو كما تنشدها الخالة غنيمة في بيتين من الشعر.. حيث تقول:

ما أَلطف اللُّطف وأَنصف لطيفة

حسنها ولطفها مقرونًا بجُلِّ الأدب

وجدْتُ ضالتي في طيب صحبتها

وهي وجدت أمًا ومكانًا داخل القلب.

## ( ١٩ )

رفض صالح المثول أمام اللجنة رغم الطلبات المتعددة من قبلها لأنه اعتبرها مكيدة للتخلص منه .. حاول الاتصال ومقابلة المسئولين الكبار في الشركة ليشفعوا له أو ليلغوا ما أسماه بالمهزلة.. لكن بعد عدة أسابيع؛ تلقى خطابًا من اللجنة ولكن هذه المرة موقعًا ومختومًا من قبل رئيس الشركة؛ يخيِّره بين رفع القضية إلى السلطات المحلية، أو الاستقالة، أو يُقال من منصبه بدون حقوق، وله حق الاستئناف لدى مكتب العمل والعمال.

أخذ صالح الخطاب ومزَّقه.. ثم نادى على سكرتيرته وقال إنه ذاهب إلى البيت ولا يريد أن يتصل به أحدٌ أيًّا كان.. هناك أغلق على نفسه باب الغرفة ولم يخرج إلا بعد ثلاثة أيام.. حيث ذهب إلى مقر عمله وأرسل خطاب استقالته من كلمتين إلى رئيس الشركة : أنا أستقيل.

جُنَّ جنون صالح.. كيف لا، وهو ذلك المعتد بنفسه، ذلك الإنسان الذي لا يُقال له لا، أو يُعصى له أمر.. كل حياته هو الآمر الناهي كيف يُقال بذلك الأسلوب الفظ.. كيف يجعلونه مسخرة للقاصي والداني.

ازدادت غرابة أطواره.. وصار يغضب لأتفه الأسباب ويضرب أبناءه على أقل زلة.. فكان يقيم البيت ويقعده ويملؤه صياحًا وتهديدًا إذا ما وقع نظره على قطعة من الأثاث في غير موضعها.. وكان يهدد الخادمة بالطرد كلما زادت كمية الملح في طعامه، أو أهملت شأنًا من الشئون المنزلية؛ وإن كان طفيفًا.

لا يخرج من البيت إلا قليلاً.. وإن خرج؛ كان يخرج وسط الظلام ويتوه في شوارع بلدته قاطعًا العديد من الكيلومترات في الليلة الواحدة، دون أن يدري إلى أين هو ذاهب.. يحاول تجنب أبناءه قدر المستطاع.. حتى لا يُسأل عن سبب عدم ذهابه إلى العمل؟.. ماذا يقول لهم؟ لقد طردوني لأني خنت الأمانة وسرقت.. وكان يتساءل: ماذا أفعل بنفسي؟ أنا لا شيء.. أصبحتُ رقمًا زائدًا في إحصاء النفوس.. أنا ضحية أفعالي.. أنا لا أكره ذاتي، بل أشفق عليها وعلى نفسي.. لكن هذا جزاء من لا يحسب حساب أفعاله.

ساءت حالته الصحية، وخسر الكثير من وزنة لقلة أكله وشراهة تدخينه للسجائر.. رفض الذهاب لزيارة الدكتور رغم توسلات أبنائه.. رفض التكلم مع أيٍّ كان، ولم يجب حتى على اتصالات شارين سميث؛ حيث أعتقد أنها أصل البلاء، وكان يقول في نفسه : منذ أن تعرفتُ على تلك الشؤم والمصائب تلاحقني من كل حدب وصوب.

عاش صالح في كوابيس منعزلاً عمن حوله.. عاش على أحلام أن رؤساءه في الشركة سيتصلون ليعتذروا على ظلمه... ولكنه ومع مرور الوقت بدأ يفيق من غروره وتصلبه.. بدأ يشعر أن لا قيمة له إلا بأهله.. كيف لا.. وهو ومنذ أن قدم استقالته؛ لم يسأل عنه أحد، ولا حتى هؤلاء اللذين أكرمهم وأغدق عليهم من ماله.

وفي أحد المرات نادى على ابنه سلمان:

- أنت لست صغيرًا ! أريد أن أخبرك شيئًا .

- نعم يا أبي.

- قد أبيع البيت وننتقل من هذه المدينة الكئيبة.

- ولكن إلى أين؟.. نحن لا نعرف غيرها.. بها تربينا وعشنا.. وماذا عن المدرسة؟.. أنا سأتخرج عما قريب.

- اسمع يا ولدي.. لا أستطيع البقاء هنا.. سأذهب إلى مكان آخر وأبحث عن وظيفة ما.. لا أستطيع الحياة هكذا؛ قابعًا بالبيت كالنساء.

- لما لا ترتاح يا أبي؟.. انظر إلى حالك.. لقد فقدتَ الكثير من الوزن.. لِمَ لا تبدأ حياة جديدة بعيدًا عن العمل وهمومه؟

- وماذا أعمل؟ صباغ أو مغسل سيارات؟

- لا.. هناك الكثير من الأعمال الحرة والتي بإمكانك القيام بها..

مثلاً ابدأ ببناء المنازل ثم بيعها .. الكثير من آباء أصدقائي يفعلون ذلك ويجنون الكثير من المال.

- سأفكِّر في الموضوع.

- وأيضًا يا أبي.. لماذا لا تبحث عن أمي.. وتعيدها إلى البيت؟.. منذ أن ذهبت إلى بيت عمها ونحن من مصيبة إلى أخرى .. لقد ضعنا يا أبي .. أنا ضعت وأيضًا أختي دلال .. أنا قلق عليها.. منذ متى وأنت لم ترها.

- أين هي على كل حال؟

- لا أعلم.. تقول أنها في بيت أصحابها ولا تعود إلا عند المساء.

- سأتحدث معها عندما تعود.. ولكن هل تتصل أمكما بكما بينما أنا خارج البيت؟

- لا.. لا نعلم عنها شيئًا .

- لا تكذب يا ولد.. أنت تعلم مكانها وتزورها كل حين.

- قلت لك إني لا أعرف مكان بيت عمها.

- وأنا أقول لك إنك كاذب.. أنا أعلم مكانها بائعة الخراف.. هذا أصلاً مستواها.. تركت العز والكرم وذهبت لتعيش مع البهائم.

- وكيف عرفت؟

- من مصادري الخاصة.. ومن أول يوم ذهبتْ إلى هناك؛ إلى تلك العجوز الشمطاء.

- هل تقصد الخالة غنيمة؟

- لا تقل خالة.. هي ليست بخالتك.

- ولكن.....

- لا تقل شيئًا الآن.. ولكن عندما تذهب إلى هناك.. أخبرها ما أخبرتك به للتو.. وقل لها أن تعقل وتعود إلى بيتها.. من ناحيتي لن أذلَّ نفسي وأذهب إليها.

- وإن رفضت؟

- أنت يا ولدي من سيقنعها.. إنها لا تستطيع البعد عنك أنت بالذات.. وما أبقاها هناك هو أنها تستطيع رؤيتك متى شاءت.. وأنا رغم معرفتي لم أمنعك من زيارتها.. ولكن إن أبت وعاندت فلن تراك ثانية طالما أنا حيٌّ أُرزق.. قل لها أن تعود إلى بيتها معززة مكرمة.. وقل لها أيضًا إنها ما زالت على ذمتي.. ولو أردتُ أن أجلبها لجلبتها بالقوة.. أقصد قوة القانون.

- إن شاء الله سأحاول.

- لا.. أنت لن تحاول.. أنت ستعود يوم الجمعة إلى البيت معها.. وإلا لن تراك ثانية.. لأننا كما قلت لك سننتقل إلى بلاد بعيدة.

- ولكن يا أبي.. كيف أقنعها؟

- قل لها: أن السبب الذي أخرجها من البيت قد ذهب من غير رجعة.. قل لها: إنها هي الطاهرة، ومن كان السبب عاهرة..

قل لها : أن جميع طلباتها مجابة.. أنت قل لها ذلك.. أنا متأكد أنها ستعود.. أنا أكثر من يعرفها في هذا الكون.. يا ولدي أمك إنسانة طيبة.. وقد تضحي بكل حياتها وكرامتها وكيانها من أجلكم وأجل بيتها.

- طيب أنا ذاهب الآن.

- لا تذهب الآن.. أريدك أيضًا في موضوع ما... اسمع يا بني.. أريدك أن تسمح لي وتصفح عني.. لقد قاسيتَ معي كثيرًا .. ولكنني أحبك يا بني.. أنا كنت أعيش في وهم العظمة وحب السلطان.. لم أقبل في يومٍ من الأيام أن أكون تابعًا.. ولكن الشدائد هي مدرسة الرجال.. وها أنا تعلمتُ الدرس جيدًا .

- كيف؟ وماذا تعلمت؟

- لقد تعلمت أنكم أنتم الحياة بالنسبة لي.. وأنتم من سيحمل اسمي ويفخر به.. لن تكون ابني الصغير بعد اليوم.. بل أخي وشريكي.. إن اقتراحك عن موضوع الأعمال الحرة صائب يا بني.. وهذا ما أحتاج إليه.. شيء يشغلني.. من الغد إن شاء الله سأبدأ إجراءات إنشاء شركة صالح وابنه للإنشاءات . وأعدك يا بني.. أن أول بناء سأقيمه سيكون مسجدًا على أرض ورثتها من أبي..

## ( ٢٠ )

كان الجو ماطرًا والأرض ملأة بالوحل. نزل سلمان من السيارة وتوجه نحو الخيمة وهو ينادي، ولا من مجيب.. ثم أشار عليه السائق : " إنهما هناك، عند حظيرة المواشي ".. توجه سلمان نحوهما رافعًا ذيل ثوبه إلى الأعلى.. هناك قبَّل الخالة غنيمة على رأسها وضمَّ أمه إلى صدره.. لم تتكلما كثيرًا .. بل وقفتا مشدوهتين بلا حراك، بينما العامل البنغالي يعدُ رؤوس الماشية .. ثم التفت العامل إليهم وقال: " تبقى خمسة وعشرون رأسًا ".

ظلَّ سلمان واقفًا بلا حراك ثم سألهم:

- ماذا حدث؟ لماذا أنتم هكذا بدون حراك؟

لم تنطق الخالة غنيمة من هول الصدمة التي كانت عليها.. ولكن أمه أجابت:

- لقد سرقونا يا بني.. سرقونا أولاد الحرام.

- من سرقكم؟

- لصوص الماشية.. الحُسَّاد.. حتمًا كانوا يراقبوننا ليل نهار.. سرقونا ليلاً حيث لم نسمع شيئًا ليلة البارحة غير صوت البرق والريح والمطر.

- ولكن هناك الكثير منهم في الحظيرة.
- سرقوا خمسة عشرًا من النعاج والغنم.. حتمًا كانوا على عجل.. وإلا لِمَ لمْ يأخذوها بالكامل؟
- وماذا ستفعلون الآن؟. هل تريدين مني أن أذهب لأبلغ مركز أمن السواحل؟
- لا يا بني.. وماذا سيفعلون؟.. سيقولون كالعادة: هذا ليس من اختصاصنا.
- ماذا ستفعلون؟ وها أنتم فقدتم نصف حلالكم.
- نحن يا بني نشتري ونبيع بالحال.. ولكن قررنا أن نُبقي على النعاج وبعض الغنم لاستيلادها.. أبقينا على أربعين رأسًا.. وها هم قد سرقوا بعضها.. الدنيا ليست بأمان كما كانت.

قاطعتها الخالة غنيمة:

- حتى لو فطنا بهم ليلة البارحة.. ماذا كان بمقدورنا أن نفعل؟ وحتى الحارس لا يقوى عليهم، وقد يقتلونه بدم بارد.. هؤلاء حتمًا محترفون بالسرقة، وقد يكونوا مسلحين أيضًا أو من أصحاب المخدرات والسوابق.. هيا لنعود إلى الداخل، ونبحث فيما سنعمله! وكيف سنتصرف بباقي القطيع.

عندما جلسوا وأخذوا يتفكرون ويستوعبون الصدمة.. اقترح عليهم سلمان:

- هناك أمران يجب عليكما أن تأخذانهما في عين الاعتبار.. أولاً: أن لا تبقوا أي من الماشية في الحوش، وتتصرفون بها وبيعها فورًا عندما تشترونها.. أما الاقتراح الثاني فهو بالنسبة لي الأهم: أنتما امرأتان، ولا حامي لكما.. وهذا قد يكون إنذار لكما.. ما قد يأتي قد يكون أسوأ.. أنتما لا تستطيعان حماية أنفسكما.. إلا إذا حملتما بنادق.. ولن تفعلا!

ثم طلب من أمه أن تناوله إبريق القهوة.. أخذ فنجانين منها وأكمل يقول:

- في السابق كان أبو سرور؛ رحمة الله عليه؛ هو من يحمي هذا المكان بحكم معرفته وسمعته بين الناس.. لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب من هنا.. لكنه رحل.. أقترح عليكما أن تبيعا كل ما عندكما من بهائم ومتاع، وتأتوا إلى المدينة للعيش معنا في البيت.

غضبت لطيفة وأخذت تنظر تارةً إليه وتارةً أخرى إلى الخالة غنيمة:

- كيف تجرؤ أن تقول هذا.. هل تريدني العودة إلى البيت.. وأنا من طُرد شرَّ طردٍ في منتصف الليل.. وهل أبوك سيرضى بكلتينا؟.. أنا لن أعود إلى البيت وأترك غنيمة لوحدها هنا.

- سامحيني يا ماما إن أغضبتك، ولكن هذا هو عين العقل.
- أي عقل تتكلم عنه يا سلمان.. لم يبقَ لي عقل.. من بيتنا طردونا، وعند خيمتنا سرقونا، وفي حالنا لم يتركونا.. وها أنت تقول إنهم قد يعودون الكرة ليغتصبونا ويقتلونا.
- يا حبيبتي يا ماما.. عودتك خيرٌ لكِ ولنا.
- أي خير مع أبيك الفاسق؟
- أبي تغيَّر كثيرًا .. يجب عليكِ أن تشاهديه الآن.. تغيَّر مائة وثمانين درجة.. أنتِ قد لا تعرفينه إلا من شكله.. إنه الآن يعاملني كأخ وليس كأب .. صار يستشيرني بكل شاردة وواردة... في الكثير من الأحيان أنا من يقرر.
- ماذا تقول؟ أخ لا ابن! أنت من يقرر! هل انقلبت الدنيا فوقًا على عقب؟ هل صارت الأباليس ملائكة؟.. والله إني أرى عجبًا، أو أن الأخرة قد حان ميعادها.. أبوك يستشيرك! عجبًا والله.. وهو الذي لم يناديك أبدًا باسمك.. بل كان يقول " تعال أيها الأعرج.. واذهب أيها الأبله ".
- لقد تغيَّر حقًا يا ماما.

قاطعتهما الخالة غنيمة.. وبحكمتها المعتادة:

- إن سلمان على حق، وكلامه فيه الكثير من الصواب.. نحن نساء هنا لا حامي لنا إلا الله.. وها قد أرسل الينا سلمان ليحذرنا

ويؤوينا.. لو قيل لي إن أحدهم سيأخذني إلى بيت المبهور قبل سنة؛ لفضلت شرب العلقم.. اسمعي لأبنك ولا تكوني عنيدة.. لا مكان للمرأة إلا بيتها.. وأنا سأكون بأفضل حال هنا.. هنا عشت وهنا سأموت.

- بعد عمرٍ مديد إن شاء الله.. ولكن لن أبرح هذا المكان بدونك.. أن أردتني أن أذهب.. يجب أن تأتي معي إلى بيتي معززة مكرمة.. الآمرة الناهية.. وإلا لن أذهب.

- بل اذهبي وأنسي أمري.. أنا لي الله الذي لا تنام عيناه سبحانه.. رازق الطير في السماء.

بكت لطيفة بحرارة وألقت بنفسها على غنيمة.. وبدأت تتكلم بصوت مخنوق وهي تتنشق دموعها التي تدفقت على خديها:

- أنا لو عدتُ سأعود لأبنائي.. ولكن لن أفضلهم عليكِ.. وأنتِ من آواني عندما نبذني الكل.. أنتِ من أطعمني عندما لم أجد ما آكل.. أنتِ من أعاد حياتي عندما كدتُ أن أموت قهرًا واختناقًا.. أنتِ من أرجع الثقة والسعادة إلى نفسي.. أنتِ من أعطاني حنان الأم عندما لم يبقَ لي أحدٌ في الدنيا... أنا لن أتركك هنا لوحدك مهما كلفني ذلك.. إما أن تأتي معي، أو أن أبقى هنا معكِ.

تدخل سلمان ليهدئ ويطمئن أمه:

- أبي من قال إنه يريدك أن تعودي، وكل شروطك مستجابة.. وأنكِ أنتِ العفيفة الطاهرة، وهو الخارج وأنتِ الداخل.. يجب أن تعودي يا ماما.. نحن في ضياع تام.. بيتنا ليس بذلك البيت منذ أن تركتِه، إنه بيتٌ بلا روح.. فقط أجساد تتحرك من داخله.. حتى الشجر جفَّ ومات، وطيرك الكناري الذي في الشرفة مات عطشًا.

- وهل سيقبل أن تعيش الخالة غنيمة معنا؟

- نعم.. قال إن كل شروطك مستجابة، ولن يرفض لكِ طلبًا عندما تعودين إلى بيتك.

قطعت حديثهما الخالة غنيمة مرة أخرى:

- عودي إلى بيتك يا ابنتي.. أبناؤكِ أهمُّ إليك من كثر النعم.. وهاهو زوجك قد ندم.. وما هو إلى سطر في الحياة من عدم.. ولكن أنتِ الكتاب وأنتِ القلم.. أنتِ الذكرى وأنتِ العَلَمْ.. سيري يا ابنتي إلى بيتك.. سيري إلى مهجعك وأنا معكِ.. لا كرامة لإنسان خارج بيته.. وها أنتِ رأيتِ.. بيتٌ بلا رجل كبوابةٍ بلا قفل.. ذئابٌ حولنا لا تشبع ولا تنتهي.. غاروا علينا بالأمس، وغدًا سينهشون لحمنا ويشربون من دمنا.. اذهبي حيث الأمان والاطمئنان.. وإن عاد عن توبته عدنا.. وما عساه

أن يعود.. الرجل يا ابنتي لا يتعلم إلا إذا خُدشت كرامته.. وانشغل في غياهب فكره.. الرجل يا ابنتي ماهو إلا طفل كبير.. يلعب، ولكن بعد حين يمل من لعبته ويرميها.. اغفري له زلته ونزوته.. لا تخطئيه وتذكرينه بفعلته.. بل سايسيه وخذيه على قدر عقله.

obeikandl.com

## ( ٢١ )

بينما كان جميع الطلاب ينصتون إلى مدرس الأحياء وهو يشرح عن الأعضاء الهضمية للضفدع .. فُتح الباب ، وإذا بالمشرف الطلابي يستأذن ثم يطلب سلمان ليمثل أمام المدير .. أحسَّ سلمان بمغص في بطنه وأخذه الرعب، وكان يحدِّث نفسه ويقول : " هذا المدير الأعور لا يطلب أحدًا من الطلبة إلا لأمر خطير، ولا أحد يخرج إلا أخذ علقة ساخنة.. هذه هي المرة الثانية التي يطلبوني فيها.. كل الطلاب يتغيبون، لماذا أنا من يُعاقَب؟".

أخذ يمشي وهو يجرُّ رجليه جرًّا، وكل العيون مسلطة نحوه.. نظر إلى المشرف علَّه يقول شيئًا ، لكنه لم يعر سلمان أي اهتمام وظلَّ مبتسما وكأنه يتشفى..

وبينما هم يسيرون ببطء في الرواق وإذا بصوت المدير ينادي:

- هيا أسرع يا سلمان.

تساءل سلمان في نفسه: "لماذا هذه العجلة؟ لعله يريد معاقبتي ثم يذهب باكرًا إلى بيته كعادته".. أخذ العرق يتصبب منه، وقلبه يخفق بشدة.. ثم سمعه مرة أخرى:

- هيا أسرع يا ولد.

عندما اقترب سلمان من المدير.. سلَّم عليه بحرارة قائلاً :

- والدك في المكتب معي.. يريد الاستئذان لك.

توجه نحو أبيه وهو مندهش وقَبَّل أباه على رأسه.

- السلام عليك يا أبي.. هل حصل مكروه لا قدَّر الله ؟ لماذا أنت هنا ؟

- هيا لنذهب.. أنا وأنت عندنا موعد مهم.

عندما ركبا السيارة.. نظر سلمان إلى أبيه وكأنه يريد بعض التطمينات.. أحسَّ أبوه بذلك وقال مبتسمًا :

- لا تخف يا بني.. خيرًا إن شاء الله.. أردتُ فقط أن آخذك معي إلى الأرض التي ورثتها عن أبي.. وكذلك نتحدث قليلاً .. لا تنسى أنك من اليوم مستشاري الخاص.

بعد ذلك ساد الصمت داخل السيارة.. صالح يدخِّن سيجارته.. بينما سلمان يتأمل ويحدِّث نفسه : " لقد تغيَّر أبي فعلاً.. أنا مستشار ! منذ متى ؟ بالأمس كان لا يطيق رؤيتي، واليوم أنا مستشار.. عجبًا ".. حاول أن يقول شيئًا، ولكنه لم يستطع، بل أخذ يتذكر صفعة أبيه التي ألصقته بالجدار عندما كان في الرابعة عشر من عمره؛ لأنه جلب كلبًا إلى البيت، وأنه لم يأبه إلى بكائه.. تذكر كيف أنه تمنى لو إن أمه كانت حاضرة لحظتها

لتنقذه والكلب من صفعاته.. ثم قال في نفسه: " حتى لو كانت أمي هناك؛ ليس بمقدورها عمل أي شيء غير التوسل والبكاء".

وفجأة سمع صوت أبيه:

- أين سرحت يا بني؟ ها قد وصلنا.

نزل الاثنان من السيارة، وأخذ صالح يتأمل تلك الأرض الفضاء إلا من بعض أعقاب النخيل والحشائش.. ثم قال:

- انظر يا سلمان.. انظر إلى هذه الأرض.. إنها ستة آلاف من الأمتار المربعة.. هذه كانت في الأساس مزرعة، ولكن مع العمران أصبحت جزءًا من ضواحي المدينة.. لقد ورثناها أنا وأختي عن أبي.. نصيبي سهمان ونصيبها سهمٌ واحد.. أي أني أملك ثلثيها.

- أنها أرض كبيرة.. وتصلح أن تكون ملعب كرة.

ثم استدرك قائلاً:

- لا، أقصد مجمعًا تجاريًا أو سكنيًا.

- نعم ها أنت قلتها.. أنا أنوي إنشاء مجمع سكني من دورين.

- وهل لديك ما يكفي من المال؟

- عندي ما يكفي.. وإذا احتجت أكثر؛ سأبيع بعضًا من أسهمي أو أقترض من البنك.

- وماذا عن أبناء عمتي.
- لا يريدون استثمار نصيبهم، بل يريدون بيعه.. سأقدِّم لهم عرضًا.. إن شاءوا باعوني، وان شاءوا يبيعون لغيري.
- هل ستعمل في الأعمال الحرة؟ أم أنك ستبحث عن عمل آخر؟
- جاءني يا بني الكثير من العروض.. لكني لن أعمل أجيرًا مرة أخرى.. سأعمل من اليوم لنفسي ولكم أنتم أيضًا .. أقصد أنت وأختك؛ في يوم من الأيام سترثانني كما ورثتُ أنا وأختي أبي.
- بعد عمرٍ طويل يا أبي.
- ولكن قل لي.. هل تكلمت مع أمك؟ وهل ستعود؟ أم ستبقى مع خرافها؟
- لقد تكلمتُ معها ووعدتني خيرًا.. أنت تعلم يا أبي أن أمي لا تحمل حقدًا في قلبها.. إنها امرأة متسامحة مع نفسها ومع غيرها أيضًا .. أنا متأكد أنها ستعود.. ويمكن الخالة غنيمة تأتي معها.
- من قلت؟ ومن هذة السيدة؟ وكيف أصبحت خالتك؟
- إنها قصه غريبة وطريفة أيضًا .. سأحكيها لك في الطريق.

ابتسم صالح وقال مازحًا:

- عجبًا.. خرجت وهي واحدة وستعود وكأنها اثنتان.

## ( ٢٢ )

سمع سلمان وأخته هدير سيارة أبيهما وهو يدخلها إلى مرآب السيارات.. فهرعا إليه وهما في غاية البهجة والسعادة.. وكانا يصرخان به:

- أمي هنا.. لقد عادت.

- حقًا ! هل فعلاً عادت؟

- نعم يا أبي.

ضمهما صالح إلى صدره.. ثم همس في إذن سلمان:

- لقد فعلتها يا بني.. ماذا قلت لها لتعود بهذه السرعة؟

تردد صالح قليلاً.. ثم دخل البيت وأخذ ينظر حوله، لكنه لم يرها.. توجه إلى غرفته لتغيير ملابسه وليستعد لمقابلتها لأول مرة منذ شهور..

أمَّا لطيفة فكانت مع الخالة غنيمة في الملحق الخارجي..

بعد ساعة نزل من الغرفة وتوجه نحو الصالة.. فرآها تنظف وتمسح الطاولات المغبرة.. نظر إليها ولم ينطق بكلمة؛ وكأنه يريد أن يعتب عليها.. توجه مباشرة إلى طاولة الطعام ونادى على الخادمة : " أين الغداء؟".



obeikandl.com

وبينما هو يأكل بمفرده.. تقدمت لطيفة نحوه بكل هدوء وثقة وأخذت تنظر إلى المستندات التي كان يقرأها.. نظر إليها:

- هل تناولتِ الغداء؟

- سآكل بعد قليل مع الخالة غنيمة.

- وهل هناك غيركِ في البيت؟

- نعم.. أعتقد أنك تعرفها.

- بالطبع.. إنها أخت منيرة.

- قد تبقى معنا هنا في البيت.. مسكينة لا يوجد من يؤنسها بعد رحيل زوجها.. هل تمانع؟

- إذا أردتِ الحقيقة.. نعم أمانع.. ولكني وعدت سلمان أن لا أرد لكِ طلبًا.. ولكنها يجب أن تبقى في الملحق.. لا أريد رؤيتها داخل البيت.. كفاني ما جاءني منها ومن أختها.

- ما قد مضى، قد مضى.. وهي لا تضمر لك إلا الخير.

- يجب أن أذهب الآن، عندي بعض المعاملات الواجب إنهاؤها، أراكِ في المساء.

عند المساء.. كان سلمان وأخته قد فرغا من عمل الواجبات المدرسية مع أمهما.. وكانا ملتصقين بها يقبِّلانها ويسألانها عن حياتها خارج البيت.. وأيضًا يتشاجران كما كانا يفعلان قبل أن

تترك البيت .. عادت حياتهم إلى مجراها الطبيعي ... وفجأة صرخت دلال :

- أبي عاد.. لقد سمعتُ صوت سيارته.

دخل صالح البيت ورآهما ملتصقين بأمهما .. وكأنها ستغادر البيت مرة أخرى.

بادرهم صالح:

- كيف أولادي الشاطرين؟

نظرت إليه لطيفة باندهاش.. لم تسمع مثل ذلك الكلام منه طوال حياتها معه.. فقالت في نفسها : " هذا ليس صالحًا.. إنه حتمًا إنسان آخر".

- هل تناولتما العشاء ؟ ولماذا كل هذا الضحك ؟ كل هذا لأن أمكما عادت.. إذًا أنا سأترك لكم البيت وأعود بعد سنة.. لأرى ما قد ستفعلونه من دوني أيها الأشقياء.

ثم نظر إلى لطيفة :

- هل تناولتِ العشاء؟

- لا.. أنتظرك لنتعشى سويًا.

- يا لكِ من زوجة مخلصة.

قالها وهو يقهقه وكأنه يريد أن يفتح موضوع خروجها.. ولكنه تدارك ما قال:

- لقد افتقدناكِ.. وتغيَّرت الكثير من الأمور هنا.. ولكن إن شاء الله للأحسن.

- آمين.

- كان يجب أن أجلب بعضًا من ورد الخزامى والزنبق معي لنحتفل بعودتك.. أما زلتِ تحبين ورد الخزامى؟ ولكن لم يكن معي المال الكافي في محفظتي.

ضحكت لطيفة وقالت وهي تداعبه:

- ما زلت أحبك وأحب أبنائي وأيضًا ريح ورد الخزامى.. أما بالنسبة إلى المال، سأعطيك مائة درهم.. ولا تطلب أكثر.

وبينما هم يتحادثان ويضحكان.. إذا بنغمة صوت التلفون في جيبه.. أخرجه وأخذ ينظر إلى اسم المتصل طويلاً .. لقد كان المتصل شارين سميث.. ثم بادرته لطيفة والنغمات مستمرة:

- لماذا لا تجيب عليه؟

- أوه.. إنها لا شيء.. أقصد إنه لا شيء.. إنه فقط رقم مزعج بدون اسم.

• • • •

عادت لطيفة إلى البيت.. وكانت تنوي ذلك وتفكِّر فيه ليل نهار..
حتى قبل أن يتكلم معها ابنها ليقنعها بالعودة..
عادت وهي مرفوعة الرأس بكبريائها وكرامتها..
عادت عندما سمعت أن زوجها وأبناءها يعيشون في حالة من الضياع..
قرَّرتْ أن مكانها الطبيعي هو بين أبنائها..
قرَّرت أن هناك في بيتها فقط ستجد السعادة..
هناك في بيتها تبدأ التضحية التي خُلقتْ من أجلها .

عاشت الخالة غنيمة معهم كجزء من العائلة..
وكان أكثر من بكى عليها عند وفاتها !!! صالح المبهور.

obeikandl.com

❖❖❖

obeikandl.com

obeikandl.com

# المؤلف في سطور

- **كاتب ومؤلف سعودي.**
- **تخرج من إحدى جامعات الولايات المتحدة في علم الاقتصاد والإدارة.**
- **عمل كمحلل ومخطط أعلى في عدة شركات.**
- **متزوج وله من الأبناء أربعة.**

- **الإصدارات:**

**- حوار مع صديقي الإنساني (باللغة الإنجليزية)**

**- إفطار مع شيطان (باللغة الإنجليزية)**

**- يا أخي! عش ودع غيرك يعيش: مجموعة قصصية**

**شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٣م**

**- اكسري القيد يا أماه: رواية**

**شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٣م**

obeikandl.com